ملتقى
«الجيلاني بن الحاج يحيى
لأعلام جربة»
(الدورة الثانية)

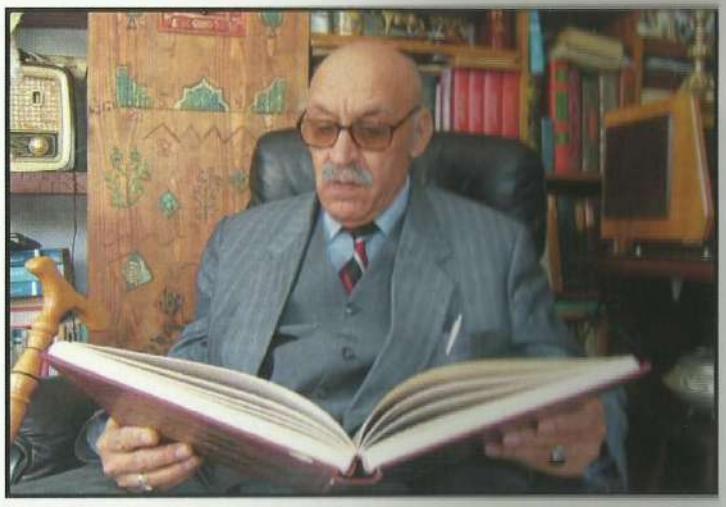

جربة 29 ـ 30 افريل 2017

Un hommage commun, et une reconnaissance nationale

«Les obsèques de l'homme de lettres, Jilani Ben Haj Yahia, grande figure de la scène culturelle tunisienne, décédé lundi (26 avril 2010) à l'âge de 81 ans, ont eu lieu, hier après-midi au cimetière d'El Jallaz à Tunis, en présence de plusieurs personnalités nationales et culturelles ainsi que du directeur général de l'Alecso..

Monsieur Abderraouf El Basti, ministre de la culture et de la sauvegarde du patrimoine a prononcé l'oraison funèbre du défunt dans laquelle il a souligné que Jilani Ben Haj Yahia était une des grandes figures de la littérature et de la pensée en Tunisie, un homme dévoué, un chercheur méticuleux et un écrivain de talent.

Le ministre a, d'autre part, évoqué le riche prcours du défunt qui a consacré sa vie au service de l'éducation et de la culture. Débutant en tant qu'enseignant, il avait par la suite, intégré la direction culturelle pour devenir le fondateur de certaines de ses sections, contribuant ainsi à la naissance de plusieurs manifestations et espaces culturels dont les bibliothèques publiques dans les villages et les zones rurales.

Cette passion, à-t-il poursuivi, l'a amené à adhérer à l'Ecole des bibliothécaires à Genève (Suisse). Bénéficiant d'une subvention de l'Unesco en matière de gestion des bibliothèques, il était devenu l'un des premiers spécialistes tunisiens dans ce domaine, ce qui lui a permis de participer activement à la mise en place d'un dispositif administratif cohérent, noyau du réseau des bibliothèques qui couvrent actuellement toutes les régions du pays.

Le défunt avait été désigné expert auprès del'organisation arabe pour l'éducation, la culture et les sciences (Alecso) pendant plusieurs années.

Ecrivain de talent, il a abordé dans ses ouvrages les événements de la bataille du Jellaz, la lutte des réformateurs notamment Tahar Haddad et la poésie du kairouanais Abi el Hassen al Houssari.

Parmi ses ouvrages «des pages de l'histoire de la Tunisie», «Histoire de la mosquée Ezzitouna» et «Les traditions tunisiennes».

Jilani Ben Haj Yahia, l'enseignant et l'homme de lettres, a largement contribué à l'élaboration du nouveau dictionnaire pour étudiants, le dictionnaire scolaire et le dictionnaire arabe fondamental. Il a également écrit plusieurs contes et nouvelles pour enfants et adolescents.

Son apport dans le domaine de l'humour s'illustre notamment dans ses deux livres «Pour le bien être» et «Anis el jalis» (le bon compagnon).

Le ministre a, également, mis l'accent sur la sollicitude et la considération dont le chef de l'Etat a entouré le défunt, en le décorant des Insignes de grand officier de l'ordre du mérite national au titre du secteur de la culture.»

«La Presse» - Mercredi 28 avril 2010

الطبع: الشركة التونسية لفنون الرّسم
STAG
الهاتف : 71 940 316

Prix: 5 Dinars
ISBN: 978-9973-701-48-0

ملتقى
«الجيلاني بن الحاج يحيى لأعلام جربة»

(الدورة الثانية)

جربة 29 ـ 30 أفريل 2017

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة ©

طبع هذا الكتاب بمطابع الشركة التونسية لفنون الرسم
STAG
الهاتف 71.940.316

ملتقى الجيلاني بن الحاج يحيى لأعلام جربة

تخليدا لذكرى المرحوم، فقيد جزيرة جربة، الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحيى، تنظّم جمعيّة صيانة جزيرة جربة ودار الثقافة فريد غازي بحومة السّوق، الدورة الثانية لـ «ملتقى الجيلاني بن الحاج يحيى لأعلام جربة»، تخصّص للتعريف بمسهماته الثريّة والقيّمة في خدمة الحياة الثقافيّة والأدبيّة محليّا ووطنيّا، وذلك يوم السّبت 29 أفريل 2017 بدار الثقافة فريد غازي بحومة السّوق.

البرنامج

1 . الثالثة بعد الزوال: الافتتاح.
2 . المداخلات:
.لطفي الجريري: الصّادق بن مرزوق.
. ابراهيم بن مراد وعبد الواحد ابراهم: دور الجيلاني بن الحاج يحيى في المعجميّة.
.مهدي اللواتي: حمّادي اللواتي.
.محرز قوشة: البشير قوشة.
.لطفي الجريري: الحبيب بكّار.
3 . تكريم عائلة المرحوم حمادي اللواتي.
4 . تدخلات الحاضرين لإثراء الحوار والإدلاء بشهادات.

الجيلاني بن الحاج يحيى كان قامة فكريّة وأدبيّة وإنسانيّة وأخلاقيّة، اعترفت بها إكبارا وإجلالا القيادات السياسيّة بالبلاد، فكرّمته، وقلدته الأوسمة تقديرا لإسهاماته الوطنيّة في مجالات الفكر والأدب والتربية والثقافة.
في الصّورة الرئيس بورقيبة أثناء تقليد الفقيد وساما ثقافيا من الدرجة الأولى، في عهد الوزير البشير بن سلامة بداية الثمانينات.

مقدمـــة

نواصل على بركة الله اصدارات جمعية صيانة الجزيرة المتعلّقة بملتقى الجيلاني بن الحاج يحي لأعلام جربة، ويسعدنا أن نضع بين أيديكم اليوم حصيلة ملتقى 25 أفريل 2015، وهي في نظرنا الدورة الأولى ذلك أنّ الدورة التي سبقتها بتاريخ 26 أفريل 2013 كانت بمثابة التمهيد لهذه المبادرة. والأمل يحدونا بأن تتواصل دورات هذه التظاهرة بانتظام وأن تتوالى الاصدارات حتّى نكون أوفياء لتقليد دأبت جمعيتنا على ممارسته منذ تكوينها لتوثيق أعمالها وعملا بخيار انتهجه فقيدنا وقدوتنا وكرّس حياته لتحقيقه موجّها خلال السنوات الأخيرة من عمره عناية خاصة لأعلام جزيرة جربة ونحن بذلك نمشي على دربه لتخليد ذكراه.

نسأل الله أن يوفّق سعينا فنوفيه جزءا يسيرا من أفضاله علينا. وشكر موصول لمن تفضّل بالجود بالنصوص المنشورة ولأخينا وصديقنا المنصف بن جمعة الذي، على عادته مع جمعيتنا، يسّر هذا الإصدار مساهمة منه في انجازاتها.

جربة في 4 فيفري 2017

فريد عبد الحميد القاضي
الرئيس الشرفي لجمعية الصيانة

سيرة المرحوم الجيلاني بن الحاج يحيى

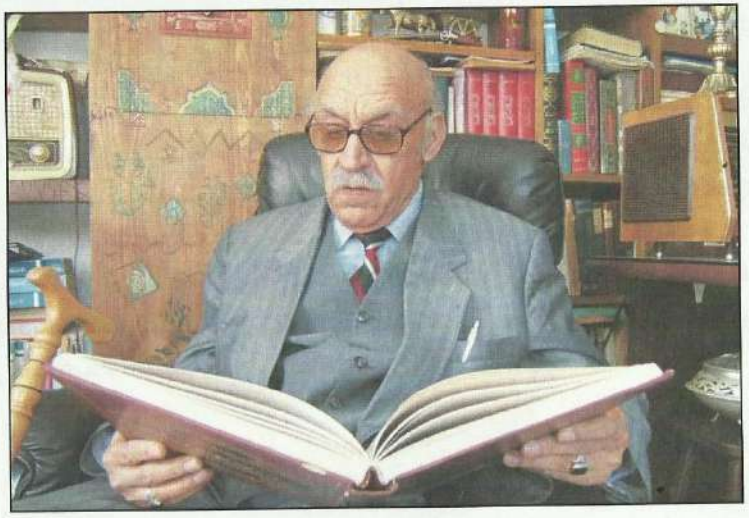

المرحوم الجيلاني بن الحاج يحيى من مواليد ميدون في 21 جوان 1929، زاول تعلمه الابتدائي بمسقط رأسه في الكتاب والمدرسة القرآنية، وأتمّ تعليمه الابتدائي بالمدرسة العربية ـ الفرنسية بنهج الكنز بتونس، حيث أحرز على الشهادة الابتدائية قبل أن ينهي تعليمه الثانوي بجامع الزيتونة ويتحصّل في المدرسة الخلدونية على دبلوم العلوم العملية سنة 1949، وعلى شهادة التحصيل في العلوم من الجامع الأعظم سنة 1950، ثم تابع دروس معهد الدراسات العليا.

ـ أصدر مجلة «وحي الشباب» سنة 1949.

ـ شارك في مناظرة مدرسة ترشيح المعلمين سنة 1951. وعُين معلم تطبيق بعد أن أحرز على شهادة الكفاءة البيداغوجية، انتدب متفقّدا للتعليم الابتدائي سنة 1957.

ـ شغل خطة رئيس مصلحة بديوان التربية الاجتماعية في الستينات.

ـ التحق بوزارة الشؤون الثقافية وكُلف بإدارة المكتبات العمومية.

ـ أحرز من منظمة اليونسكو على منحة للتخصّص في فنّ المكتبة بمعهد أمناء المكتبات بجنيف (سويسرا).

ـ اشتغل خبيرا في المنظمة العربية للثقافة والعلوم لمدّة ثلاث سنوات، ثم عُين مستشارا لوزارة الشؤون

الثقافية.

ـ أحيل على التقاعد بطلب منه للتفرغ لإحياء التراث وتأليف المعاجم العربية، له ما يزيد عن سبعة عشر مُؤلّفا.

ـ مُنحت له الجائزة الكبرى للدراسات من بلدية تونس سنة 1989، ومنح له الصنف الأول من الوسام الثقافي سنة 2001.

وإلى جانب نشاطه الثقافي والاجتماعي ـ فقد أسّس رفقة عدد من زملائه الأدباء نادي القصّة بالوردية وأسهم بفعالية في الخطة القومية لمحو الأمية والتربية الاجتماعية ـ كان للمرحوم الجيلاني بن الحاج يحيى دور في الحياة الثقافية في جزيرته الأم، حيث أسّس عددا من الملتقيات وشارك في تنظيم ندوات قيّمة، واهتم بسيرة عدد من الشخصيات التاريخية، وألّف بشأنها كتبا تعدّ مراجع تناولت حياة عدد من الأدباء والصحفيين والشعراء من أصيلي جزيرة جربة، وكان له، خاصة بعد خروجه للتقاعد، اهتمام خاص بجزيرته الأم، فألّف كتبا عن أبنائها المتميّزين في اختصاصات شتّى، وأسهم بكتاباته الرشيقة في عدد من الصحف وفي مقدّمتها «الجزيرة» الجريدة المحلية، وأهدى ما يزيد عن نصف مكتبته العامرة إلى المكتبة العمومية بميدون، ملأها روايات وقصصا ومراجع وفاء منه الى مسقط رأسه. كما ظلّ للمرحوم الجيلاني بن الحاج يحيي دور محفّز وفاعل في نشاط جمعية صيانة جزيرة جربة، واهتمّ اهتماما لصيقا بنشاطها وندواتها الفكرية، ودعّم مبادراتها الرامية إلى الحفاظ على خصوصيات جزيرة جربة وتثمين تاريخها وإرثها الحضاري.

كان المرحوم الجيلاني بن الحاج يحيي الذي يُحسب له ـ فيما يحسب ـ تأليفه للقاموس المدرسي، تبسيطا للغة العربية لدى الناشئة المدرسية، صاحب رأي وفكر، وصاحب وفاء لمسقط رأسه الذي عاد إليه في سنوات حياته الأخيرة يغمره الشوق والحنين، فأسهم إسهاما فاعلا في تنشيط الحياة الفكرية والثقافية فيه. وإلى جانب هذا كان مرحا، يحلو الجلوس إليه، وصاحب نكتة لطيف المعشر.

توفّي المرحوم الجيلاني بن الحاج يحيى يوم 24 أفريل 2010.

رحمه الله وأثابه عن كلّ ما قدم من جزيل المكرمات، وجازاه خيرا عن كلّ ما ترك من إرث طيّب في عديد المجالات: أدبيا وفكريا واجتماعيا، ومن ذكر عَطِر لدى كلّ من عرفه.

ملتقى الجيلاني بالحاج يحيي
« أعلام جزيرة جربة»

حيث أنّ شخصية المرحوم الجيلاني بن الحاج يحيى، متعدّدة الاهتمامات، ثريّة المكوّنات، متنوّعة المشارب، فهي جديرة بأن تختزل مشروع ملتقى قارّ و دوري، يتناول بالدراسة أعلام جزيرة جربة، في كلّ أبعادها، من حيث تنوّع الاختصاصات والانجازات والمساهمات والمناقب، ومن حيث العمق التاريخي عبر مختلف الفترات والمراحل، ومن حيث خصوصيات المواقع التي تبوّؤوها.

وحتّى تبقى شخصية الأستاذ حيّة بحضورها في كلّ دورات الملتقى (دورة كلّ سنتين)، يجدر أن تخصّص فقرة قارة في كلّ دورة تعرّف بالجانب الذي يتّصل المحور المخصص لها بمجالات اهتمام ونشاط الفقيد، على أن تتفرّغ الدورة الأولى للتعريف بشخصية ومناقب الفقيد، رحمه الله.

وقبل التوسّع في برمجة محاور مختلف الدورات، تخصّص الدورة الأولى للتعريف المستفيض بمناقب الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحيى، لتشمل المجلات التالية:

- رجل التعليم.
- الصحفي.
- الأديب والمفكّر والمحقّق.
- الناشط الاجتماعي، في علاقته بجزيرة جربة، وبقية ربوع البلاد التونسية.
- الملتقيات والندوات التي أشرف على تأسيسها ودعمها ومساندتها (ملتقى سليمان الجادوي، ملتقى البشير التليلي....).
- الجيلاني بن الحاج يحيى وجمعية صيانة جزيرة جربة.

إضافة إلى ما يمكن أن يقترح من عناصر أخرى برز بها الأستاذ الفقيد.

الدورات الموالية:

تختصّ كلّ دورة بموضوع مميّز يتّصل بشخصية الأستاذ الجيلاني، رحمه الله، وتشمل فقرة قارة تتناول مناقب الفقيد لا تغيب عنها عناصر الفكاهة والأدب والبلاغة، التي لم تكن تفارقه أينما حلّ، وحيثما تحدّث.

أمّا محاور الدورات، فقد يكون من المفيد أن تنطلق من ثراء شخصية فقيدنا، ومن ثراء المجتمع الجزيري الجربي في مختلف جوانبه ومراحله وحقبه التاريخية. وهذا يمكن أن يختزل في المواضيع التالية، يكون الأعلام أقطابها، وتتّسع إلى أبعد الفترات التاريخية وأقربها:

- التعليم والمعرفة في جزيرة جربة.
- المكتبات، المخطوطات والتحقيق في جزيرة جربة.
- موقع المثقّف في المجتمع الجزيري الجربي، ودوره في تأطير النشاط الاقتصادي والاجتماعي والتنموي.
- أعلام الحركة الوطنية والنضال في جزيرة جربة ضد الاحتلال وأطماع المستعمرين، عبر التاريخ.
- شخصيات جربية برزت عبر التاريخ، وطنيًا وعالميًا.

هذه مقترحات قابلة للإضافة ولا تخضع لترتيب معيّن.

تمنّياتي بالتوفيق، ورحم اللّه فقيدنا رحمة واسعة.

محمّد قوجة
في 20 اكتوبر 2013

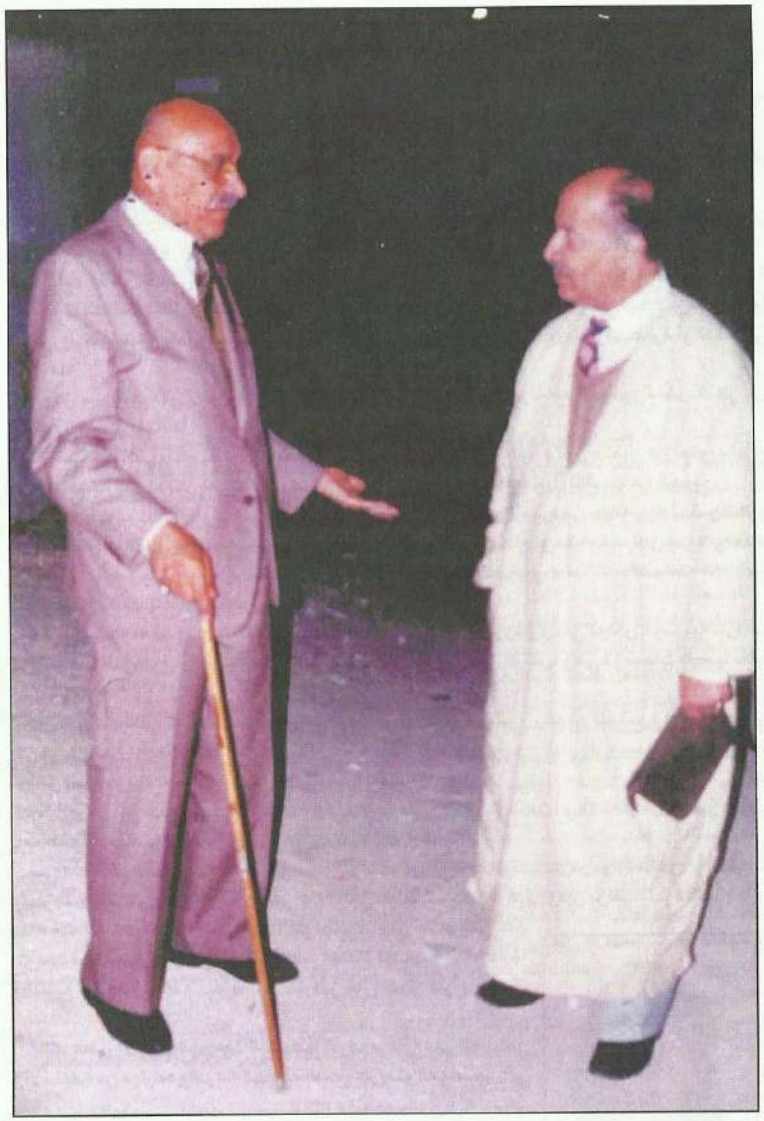

مع صديقه الحميم فريد القاضي رئيس جمعية صيانة جزيرة جربة

الجيلاني بن الحاج يحيى أوالقدرة والإبداع في تقاسم المعرفة

فخرالدين الكاتب

لقد تردّدت كثيرا قبل التوفق إلى انتقاء الجانب من شخصية سي الجيلاني الفذّة والمتنوعة الذي سأحدثكم عنه وعنونة هذا العمل المتواضع الذي أردت عرضه عليكم.

لا شك وأن الكثيرين من أصدقائه، ورفاقه أو زملائه يعرفون الشيء الكثير عن هذا الرجل، الإنسان الأديب، الطيب العشرة، ويستطيعون سرد كل التفاصيل عن مسيرته ومراحل حياته ككل.

لكن فيما يخص تدخلي هذا سوف أحاول إفادتكم حول طريقة سي الجيلاني في تبليغ المعلومة المتأتية من خبرته الفائقة.. لفائل أن يقول: «ذاك ما يقوم به أيّ شخص»، لكن عذرا لم يكن سي الجيلاني هكذا كأيها الناس، بل كان يتمتع بقدرة عجيبة على شدّ الانتباه إليه دون كلل أو ملل حين يلقي محاضرة أو تدخلا في مجال ما.

لم يكن سي الجيلاني يلقّن المعلومة بل كان بكلّ بساطة يتقاسم المعرفة مع الحضور بغضّ النظر عن الأماكن التي كان يرتادها أو المستوى الإجتماعي والثقافي للحاضرين.

كان سي الجيلاني يتكلم بأريحية ويعبر عن رأيه ببساطة دون أي تكلف، ودون التخلي عن أسلوبه المرح وروح الدعابة التي لم تكن تفارقه أبدا، كان كل همه الإفادة وتبليغ المعلومة بل تقاسمها مع الجميع.

لم يسعفني الحظ أن أتعرّف على سي الجيلاني إلاّ خلال السنوات الأخيرة من حياته، ولم أحضر الكثير من تدخلاته عدا القليل من المحاضرات، أو الأمسيات أو حول مائدة غذاء أو عشاء.. كم كان جميلا وممتعا أن يتناول المرء وجبة أو مجرّد فنجان قهوة مع هذا الرجل الكريم الذي يستقبلك بابتسامته العريضة المعهودة في مكتبه الكائن في أحد أركان الحديقة المنزليّة.

أذكر أنّني دعوته في إحدى المناسبات لإلقاء محاضرة في نادي «الروتاري» في تونس الجنوبية تاركا له حرية اختيار الموضوع.. تطرّق آنذاك إلى الحديث عن «المدارس» في تونس، وهي مؤسسات يقطنها طلبة جامع الزيتونة.

كان سي الجيلاني كعادته يتمتّع بقدرة نادرة في شدّ انتباه الحضور رغم أنّ الموضوع في حدّ ذاته لم يكن في غاية من الأهمية، ثم إنه من حين الى آخر يحيد عن سياق الموضوع الذي كان بصدده ليسرد مغامرة تعرّض إليها، أو يتفكه بملحمة تدخل الابتسامة وتطرد الضجر.

لقد أبهرني سي الجيلاني بهذه الموهبة التي كان يتحلّى بها، والتي تكمن في الانتقال من موضوع لآخر ببساطة وأريحية، بين الجد والهزل لا مكان للقلق برفقته.

سي الجيلاني شخصية متعدّدة الجوانب والمواهب، فهو في ذات الوقت المدرّس، والقصاص، والخطيب، والمنشط، والفكاهي، لكن الجانب المميز لهذا الرجل هو أنه كان نعم الرفيق، وكان يوظف بقدرة فائقة إحدى هاته الشخصيات حسب الظروف، والمواضيع، أو الأماكن التي كان يتواجد فيها حتى يصل الى مبتغاه ويشد اهتمام المتلقي قصد الإفادة، والتبليغ وخاصة تقاسم المعرفة مع التركيز على الجو المرح وحسن الضيافة.

لذلك، فعلى الأجيال الصاعدة التي نالها شرف مرافقة سي الجيلاني والاستفادة من مهاراته وقدراته العجيبة النسج على منواله والسير على خطاه.

(ترجمة: نجاة قوشة ـ القاضي)

من منّا لم يعرف الجيلاني بن الحاج يحيى ؟

الأستاذ: الصّادق بن مهنّي

أنت فينا... أنت «مشرّش» في وجداننا، أنت زيتونة ألفية ضربت بجذورها في كلّ أنحاء بلدنا... لا أحد لم يقرأ لك... بكلّ تأكيد: لا أحد لم يقرأ لك حتّى وإن شحّت القراءة. من لم يقرأ لك طفلا قصصك الممتعة قرأ لك تلميذا في الثانوي مأثرتك أنت وصديقك محمد المرزوقي عن حوادث الجلاّز، أو قرأ لك شابا ما حقّقته من كتب، أو قرأ لك كهلا تلك الطّرف التي جمّعتها فاتحفتنا... أمّا الشيوخ فقد عرفوك مناضلا وطنيّا بقلمك، تجترح المستحيل فتخرج عليهم بمجلّات لا تني ترفع رأسها رغم الهراوات... أنت فينا... في وعينا وفي لاوعينا: أنت قامة لا ولن تتمدّد... أنت فارس لا ولن تترجّل.

أنت فينا... في عقولنا وفي قلوبنا وفي كلّ أنحاء الوطن.

لقد حميت لغتنا إذ قرّبتها إلينا أكثر بقواميسك، وكشفت لنا تحفا من تاريخنا أريد لها أن يطمرها النّسيان...

أنت فينا لأنّك كنت على الدّوام فاعلا وبناء بل مشيّد صروح:

المطالعة الوطنيّة، نادي القصّة، نوادي المدينة العتيقة، نوادي الثقافة في كلّ مكان، مسؤولياتك في وزارة الثقافة وفي الألكسو... كفاحك ضمن جمعية صيانة جزيرة جربة... مكتبتك التي أهديتها لمسقط رأسك، دارك التي كانت مقصد كلّ باحث عن استفادة أو متعة فكريّة أو توجيه ... أنت فينا... فنحن أولادك.... أنت في كلّ التونسيين، لأنّ كلّ تونسيّ مدين لك بفكرة، بمعرفة، بكلمة، بإضاءة، ولأنّ أحبّتك هم بكلّ ألوان الطّيف !

أنت فينا لأنّك من القلائل الذين جمعوا فأوعوا... من القلائل الذين أحبّوا النّاس جميعا ولم يبخلوا على أحد... أنت المثقّف العضوي الحقّ: كنت في كلّ مكان، ووقفت مع كلّ من استحقّ أن تقف معه.

عمّي الجيلاني: أنت فينا جميعاولكنّك في قدماء اليسار أكثر فأكثر:

لكم حميتنا، ودافعت عن براءتنا، لكم دفعت عنّا الطّوى، وتحمّلت المشاق من أجلنا. لم نحسّ أبدا أنّك والد رفيقنا فتحي وحده بل أحسسناك دائما أبانا جميعاوأحسسنا رفيقة دربك، خالتي حبيبة، أمّا لنا كلّنا.

عمّي الجيلاني: آخر مرّة استمتعت خلالها ببسمتك الوضّاءة كانت حفل تقديم كتاب محمد الصالح فليس، وآخر مرّة سمعت فيها صوتك العذب الأبويّ كانت مهاتفتك لي قبل أيّام تعزّيني عن اغتصاب مسكني ونهبه . أذكر أنّك قلت لي: «عجبا لماذا تتهاطل المصائب دائما على الطيّبين ؟».

عمّي الجيلاني أنا فخور لأنّك أشعرتني دائما أنّني واحد من أبنائك. وأنا معتزّ لأنّك أحللتنيفي واحدة من إهداءاتك مقام ولدك.

عمّي الجيلاني: كثيرا ما تمنّى لأنّني لم أكتب كتابا، وكثيرا ما هاتفتني فأحرجتني باطارنك لهذا المقال أو ذاك ممّا كتبته بجريدة «الجزيرة»، وكثيرا ما أشعرتني أنّك تنتظر أن تقرأ لي ولقد حدث أكثر من مرّة أن وعدتك: وقسما سأكون عند وعدي.

عمّي الجيلاني: انعم بمأثرك، التي لن يطويها الزّمن، وانعم بخصالك التي لا تُنسى، وانعم بما زرعته وبثثته فينا: تقديس الجهد، وحبّ البذل، واحترام الآخر، والصّبر الجميل، والتّوق إلى الأجمل.

عمّي الجيلاني: أنت، وإن غادرتنا، لم ولن ترحل.

الجيلاني بنّ الحاج يحي مندوب تونس في مؤتمر المكتبات ببيروت يدلي بحديث لسميرة الصائغ رئيسة تحرير مجلّة الأسبوع العربي التي تصدر بلبنان

في مؤتمر الجماعة الإسلاميّة بالقاهرة 1948

الأستاذ: عبد الواحد ابراهم

أمسية أدبيّة بالنادي الثقافي «أبو القاسم الشابي» بالورديّة 1964

جلوسا من اليمين إلى اليسار: الفاضل بن عاشور، حسن حسني عبد الوهاب، الشاذلي القليبي، الهادي خفشّة، عثمان الكعاك، محمد بن عمارة، الجيلاني بن الحاج يحي، محمد العروسي المطوي والحبيب بولعراس

سرى الاعتقاد في خضمّ موجات التقدّم التي عمّت أوروبا خلال القرن الثامن عشر أنّ من أوكد واجبات الإنسان التحكّم في مصيره، ممّا يدفعه بالتالي «إلى أن ينشّط المجال الذي يعيش فيه، ويحييه، ويدافع عنه، ويعيد تشكيله ليملكه» كما يقول جويل بونميزون خبير الجغرافيا الثقافية.

لكنّ عملية التغيير هذه لا يمكن أن تحقّق نجاحا إذا نُفّذت بانعزالية أو بطرق فردية حسب تأكيد عالم الإجتماع آلان توران الذي يقول: «الإنسان لا يتغيّر بفرديته بل في إطار حركة جماعية». ومن هنا انبثقت فكرة إحداث الجمعيات لتكون الإطار الأنسب للحركة الجماعية التي يُراد منها إحداث التغيير.

تبلورت هذه الفكرة في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر فبدأت تبرز للنظام الجمعياتي ملامح واضحة، أين صار من الممكن مقارنة مفهوم الجمعية بغيره من المفاهيم المجاورة والسابقة له من التشكيلات التي كانت تنظّم التعاملات البشرية آنذاك كالشركة والمؤسّسة والمنظمة. وقد ساعدت الحركة التنويرية على انتشار الجمعيات الثقافية والعلمية وعلى تنوّعها الى درجة دفعت الحكومة الفرنسية إلى ترتيبها في قوانين ابتداء من سنة 1902.

تلك المقارنة بين الجمعيات وغيرها هي التي تدفعنا إلى استنتاج مبدئي، وهو أنّ عقد الجمعية يستمدّ منابعه من ركيزتيْن اثنتيْن أصلهما واحد وهو الحرية. فالركيزة الأولى تتمثّل في حرية الاجتماع، والركيزة الثانية في الحرية التعاقدية، وبفضل الركيزتين المذكورتين أمكن للجمعيات أن تتطوّر وأن تأخذ أشكالا جديدة اليوم، وأن تكون لها خصائص تميّزها عن مفاهيم أخرى، أهمّها خاصية عقد الجمعية المتمثل في تحقيق هدف مشترك، تدفع إليه رغبة الإنسان في تنشيط المجال الذي يعيش فيه وإعادة تشكيله لامتلاكه والتحكم فيه، وهذا لا يتمّ ولا يحقّق نجاحا بطرق فردية بل في إطار حركة جماعية، كما ذكرنا سابقا.

بالعودة إلى تونس قبيل انتصاب الحماية الفرنسية نجد المؤرّخ محمد الهادي الشريف يصف حالها بالجمود والتراجع والتقهقر وانخرام التوازن الهشّ مع أوروبا الناهضة آنذاك، ويلخّص الحال في كتابه «تاريخ تونس» بهذه الجملة المتشائمة: «فدخلت البلاد في عملية تفتّت داخلي طويلة» .. وهي حال لم تنفع الإصلاحات الترقيعية المتقطّعة في إيقافها أو الحد من مصائبها إلى أن حصل الوقوع بين براثن الاحتلال الفرنسي المقنّع.

* أصول الفكر الجمعياتي في تونس

نعم عرفت تونس خلال تلك الفترة طائفة من الرجال المصلحين أمثال خير الدين، سالم بوحاجب، محمد بيرم الخامس، وآخرين، لكن لم يظهر لأعمالهم تأثير كبير لفرديتها وعدم انتظامها في سلك تعاقدي يقوّيها ويوحّد أعمالها.

إلا أنّ فقرة يوردها محمد الفاضل بن عاشور في صفحة 38 من كتابه «الحركة الأدبية والفكرية في تونس» تستوقفنا وتثير انتباهنا إلى بروز إرهاصات لوعي جديد بضرورة العمل الجماعي. نقول إنّها

بداية وعي وليست عملا منظّما درج العمل به واتباعه كسنّة اجتماعية. فعن فترة الانعزال التي بقي فيها خير الدين بعيدا عن الوزارة والمسؤوليات الحكومية ما بين 1862 و1865 يقول ابن عاشور: «دخل الوزير خيرالدين في عزلة تفكير واعتبار، تفرّغ فيها لضبط معلوماته عن الحضارة الغربية، وتدقيق ملاحظاته ومقارناته، واستخلاص النتائج الاعتبارية. وأقبل على رجال عصابته من أهل العلم وأهل السياسة الذين كانوا يتردّدون على قصره في شيء من الاختفاء، واندفعوا جميعا يدرسون تلك النظريات ويحرّرونها... حتى تمخّضت تلك الدراسات والمداولات عن الكتاب العظيم».

والكتاب العظيم كما يصفه الشيخ الفاضل هو «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» الذي بيّنت هذه الفقرة أنه مشروع جماعي أملاه التفكير والتأمل في وضع البلاد المزري، وإعداد ما يجب من وسائل العلاج. وبالعود إلى بعض المراجع نجد أنّ ممن اعتمد عليهم خير الدين يوجد: سالم بوحاجب، أحمد الورتاني، مصطفى رضوان، محمد بيرم الخامس وآخرون قد يبلغ عددهم العشرين.

فيما بعد تأسّست جريدة الحاضرة سنة 1888 على يد علي بوشوشة، وهذا يعدّ حدثا بارزا في مسار الحركة الفكرية والسياسية التونسية الحديثة، إذ أعطت الجريدة الكلمة للأدباء والشعراء ليصيغوا أسس الوطنية، وجمعت حولها طائفة من النخبة الصادقية والزيتونية، وفّروا لها التمويل والدعم، وحدّدوا لأنفسهم أهدافا تتمثل في الدّفاع عن كيان البلاد في مستوى الدين واللغة والعادات والتقاليد، أمام الغزو الاستعماري.

يقول علي العريبي في كتابه عن جريدة الحاضرة الذي نشرته كلية العلوم الانسانية والاجتماعية: «هكذا اتّفق الجماعة حول هدف واحد هو حبّ خير البلاد، وتصافحوا على ما يفيد العباد، واجتمعوا في مكان ما بتونس العاصمة وأقبلوا على تحرير القانون الأساسي... وهم علي بوشوشة، البشير صفر، محمد إبن خوجة، أحمد السقاط، محمد المعتمري، خليل بو حاجب».

فالتفاف هذه المجموعة حول جريدة الحاضرة كان أحد عناصر التأسيس لتيار ثقافي وطني يرسّخ مقومات الهوية التونسية، وستنبثق من صلبه جمعيات ثقافية وفكرية واجتماعية مثل الجمعية الخلدونية التي تأسّست عام 1896 وجمعية قدماء الصادقية التي تأسّست عام 1906 متحدّية كلّ العراقيل التي اعترضتها من قوى الرجعية والاستعمار صدّا ومنعا.

وبهذا يكون الحراك الفكري والسياسي والاجتماعي الذي عرفه الثلث الأول من القرن العشرين بالبلاد التونسية مرتبطا في أساسه وجوهره بقضايا الحرية والتحرّر.كما أشرنا إلى ذلك في البداية.حيث تظافرت جهود الصادقيين والتنويريين الزيتونيين وعملوا جنبا إلى جنب في جريدة الحاضرة، وفي الجمعية الخلدونية، وفي جمعية قدماء الصادقية، وفي حركة الشباب التونسي، وفي جمعية طلبة شمال إفريقيا، وفي حزب الدستور، على قاعدة الرؤية التحريرية والغاية الوطنية.

كانت الصبغة الثقافية هي الغالبة في نشاط النخبة أوائل القرن، ثمّ تطوّرت الأمور فأصبح المجال يتطلب عملا سياسيا صريحا، انجرّت البلاد بدواعيه إلى مواجهات عنيفة مع المستعمر، ثم وقع العود بتدرّج من حقبة المقاومة العفوية والصدام إلى مرحلة المقاومة الوطنية الثقافية، أي مرّره المناضلون الصداميون المندفعون إلى النخب والمثقّفين الواعين بالانحطاط وأسبابه، ليعملوا على استنهاض المجتمع وإيقاظ قواه الكامنة بتأسيس الجمعيات الثقافية والاجتماعية والفنية وغيرها.

* من الاندفاعي إلى الفكري

أين يتموقع نشاط المرحوم الجيلاني إبن الحاج يحيي في خضم هذه الحركية الثقافية التي تعرّضنا الى جذورها ومراميها؟

هنا علينا العودة إلى البدايات المحتشمة لمساهماته في تلك الحركية منذ كان طالبا في جامع الزيتونة، إذ كان يغشى مجالس بعض المشايخ المهتمّين بالفكر والأدب وأشهرهم محمد العربي الكابادي الذي كان بعد أن تقدّم به العمر يعقد حلقاته في مقهى الهناء قرب داره بباب المنارة. في خطوة تالية نجد الجيلاني يساهم عام 1949 في تكوين نادي القلم، ثم يمرّ إلى خطوة عمليّة في نفس السّنة ببعث مجلة «وحي الشباب» التي جمعت حولها مجموعة من الشباب المثقّف، ويندرج ما قام به آنذاك في دائرة اندفاعات شبابية لم تتوفّر لها بسبب حال البلاد تجارب أو ظروف اجتماعية وسياسية مساعدة.

ثم دخلت البلاد في مواجهات سياسية عنيفة مع الاستعمار انتهت بحصولها على الاستقلال، فوقع التدرج .كما سبق أن ذكرنا . من كفاح الاندفاع والمقاومة إلى بناء الثقافة الوطنية. ولنا في ما حصل مع نادي أبي القاسم الشابي بالوردية أفضل ما يستشهد به في هذا المجال.

ولقد حدّثنا الجيلاني في أكثر من مناسبة كيف دعاه المناضل البشير زرق العيون وأعلمه أنّ شعبة الوردية التي يرأسها قد خصّصت مبنى أنشئ بمساندة السكان ليكون ناديا ثقافيا، وكيف أوكل رئاسته إلى السيد محمد بن عمارة، وأمانته العامة إليه هو بالذات لصلته بالمثقّفين، وقدرته على استقطابهم ليمارسوا نشاطهم في ذلك المكان.

تمّ تدشين النادي الثقافي أبو القاسم الشابي سنة 1962 من طرف رئيس الدولة الحبيب بورقيبة وبحضور الوزراء، واكتسب من الوجاهة وقوّة الامكانيات ما جعله ينطلق انطلاقة ضخمة، إذ استقطبت برامجه ومحاضراته جمهورا عريضا، وقام الجيلاني بدور حلقة الوصل بين المعلم والنخب الثقافية والفنية، وإليه يعود الفضل في تحقيق أمرين هامين:

أولهما بعث المجلس الموسّع للنادي الذي انتظمت له جلسات يدعى إليها ثلّة من العلماء والأدباء والفنانين تخطّط لأعمال النادي وبرامجه، وكان أكثر الناشطين فيها: الطاهر قيقة. حمادي الساحلي. الطيب العنابي

. البشير العريبي. محمد العروسي المطوي وغيرهم.

ثانيهما: استحداث خلايا اختصاص تابعة للنادي الأصلي مثل: نادي القصة. نادي المكتبة والكتاب. نادي التصوير. نادي المسرح. نادي الموسيقى، وهي خلايا اختلفت أنشطتها قوّة وضعفا، كما تباعدت فترات انبعاثها واندثارها، فكان أولها جميعا نادي القصة الذي أنشئ عام 1962، ويكاد يكون النادي الوحيد الذي طال عمره إلى اليوم، وجاء في آخر القائمة نادي المعجمية الذي كانت أهدافه تتجاوب مع اهتمامات الجيلاني باللغة العربية وتطوير قواميسها.

لقد تولّى الجيلاني مهمة الكاتب العام للنادي الثقافي منذ نشأته، وعمل مع رئيسه الأول محمد بن عمارة الذي كان مدير الحزب الدستوري في نفس الوقت، ثمّ مع رئيسه الثاني الطاهر قيقة الذي كان في نفس الوقت مديرا بوزارة الثقافة، فامتازت فترة أدائه للمهمّة بنشاط أدبي راق أكسب النادي إشعاعه المعروف خلال الستينات والسبعينيات، وقد كنت ممّن استمعوا من منبره إلى محاضرات توفيق بكار، محمد الفاضل بن عاشور، الأب ديمرسان، محمد اليعلاوي، محمود المسعدي، وفاتني حضور كثير غيرها.

* الجيلاني والجمعيات الثقافية

لقد كان للجيلاني نشاط متواصل مع الجمعيات الثقافية يمكننا تصنيفه إلى نوعين:

النوع الأول تمثّل في قيامه بالحثّ على بلورة المؤسّسة، وقد يدفع إلى تكوينها بربط الصلة بين من يتوسّم فيهم الرغبة في العمل ضمن نشاط ما. حدث هذا مثلا ضمن خلية انبعثت منها مدرسة التمثيل العربي بإدارة حسن الزمرلي، وقد أخبرني أنه عمل فيها ملقّنا، وجلب إليها شبانا من هواة التمثيل يسكنون المدرسة الشماعية صار لهم شأن بعد ذلك مثل رمضان شطا والهادي المرنيصي. أعرف أيضا أنه كان أحد المحرّضين على إنشاء اتّحاد الكتاب التونسيين بحكم صداقته للعروسي المطوي، وهو أحد المؤسّسين الى جانب محمد مزالي والشاذلي القليبي ومصطفى الفارسي وأبو القاسم كرو، وسيكون من أوائل المنخرطين والعاملين في أنشطته المختلفة. ولا أنسى خدماته الجليلة أثناء مؤتمر الأدباء العرب عام 1973 التي أعانتني على أداء مهمة عسيرة أنيطت بعهدتي.

اهتمّ الجيلاني بتهذيب اللغة العربية وتيسيرها، وساهم في وضع معجم لها، ولكنّه لم يكتف بذلك، فكأنه كان يدرك ما ستبتلى به مستقبلا من تشويه وإهمال، وما ستفعله بها شركات الإعلان التي تحوّل الكتابة الى اللهجة الدارجة بألفاظ سوقية أحيانا وسط عجز النخبة المحبة للغتها، الحريصة على حفظها. وقد وجد في طائفة من بين هذه النخبة استجابة لدعوته في إنشاء الجمعية المعجمية في إطار النادي الثقافي، وضمّت هيئتها التأسيسية رشادالحمزاوي وعبد اللطيف عبيد وإبراهيم بن مراد.

النوع الثاني تمثل في الإسهام المواظب في أنشطة الجمعيات، سواء بالحضور فيها بصورة مبدئية،

حتى وإن لم يتمازج ذوقه مع ما تقدّمه أحيانا، وقد رأيته يخرج من بعضها ناقدا متأففا، فأسأله عما يجبره الى الإلتزام بما لا يلزم، فيجيب: «حفاظا على كل شمعة أن تنطفئ». إلى جانب ذلك نجده يساهم عمليا في الأنشطة سواء بمحاضرات يلقيها، أو نقاش يساهم فيه إثراء وتصحيحا. ومن هذه الجمعيات ما كان لا يغيب عنه مثل:

. جمعية قدماء الصادقية التي قدّم فيها كتب عدد من أصدقائه مثل محمود شمام والبشير بن سلامة وحمادي الساحلي.

. جمعية مواقع ومعالم التي يديرها زكريا بن مصطفى وقد قدم فيها محاضرات تاريخية.

. نادي بشرى الخير الذي عرّف من منبره بإعلام جربة مثل سليمان الجادوي، والتيجاني بن سالم، وصالح بن يوسف.

. النادي الثقافي أبو القاسم الشابي بالوردية.

ومنها ما كان يحضرها على غير انتظام إمّا لبعدها المكاني، أو لتقطع أنشطتها وعدم انتظامها، ومن بينهم نذكر:

. ملتقى بشير التليلي بميدون.

. ملتقى سليمان الجادوي بأجيم، وقد دعاني إلى الحضور فيه وإلقاء محاضرة عن صديقنا المرحوم حمادي الساحلي.

. جمعية صيانة المدينة ببنزرت التي قدّم في ندوتها التاريخية السنوية محاضرة عن الصادق الرزقي، وحرّض أصدقاءه محمد اليعلاوي وحمادي الساحلي والعزيز بن عاشور على الإقتداء به، فحاضر الأول عن الصحافة ببنزرت زمن الإحتلال الفرنسي، وحاضر الثاني عن علي بوشوشة وجريدة الحاضرة، وحاضر الثالث عن المسطاري سلطان المدينة.

. جمعية قدماء نهج الباشا.

. الجمعية الجهوية لتعليم الكبار بأريانة، وقد ساعد في إطارها على استقطاب الدارسين وتشجيعهم على المواظبة، والمساهمة في حلّ مشاكلهم الاجتماعية، نظرا لخبرة اكتسبها في هذا الميدان من ديوان محو الأمية.

. بيت الشعر، وقد عرّف على منبره بالشاعر الحصري القيرواني، وبمواضيع أخرى.

* الجيلاني في المنتديات الخاصة

لقد واظب الجيلاني منذ عهد بعيد على الحضور في ثلاثة منتديات، لكلّ واحد منها خصوصية وأعضاء معيّنون:

أولها منتدى مكتبة عبد القادر الطرابلسي الكائنة بما كان يصطلح على تسميته بسوق الكتبية القريب

من جامع الزيتونة لأنه كان يضمّ أهمّ الكتبيات العربية آنذاك كمكتبة محمد الأمين وأخيه والهادي عبد الغني والمطوي والخنقي، ويعلن فيه عن بيع الكتب القديمة أو المخطوطات بالمزاد العلني.

كان يلتئم صباح كلّ أحد مجلس هذا المنتدى يتصدّره صاحب المكتبة بجبّته وطربوشه، وأمامه في صفّين متقابلين الجيلاني إبن الحاج يحيي، محمد اليعلاوي، الطاهر قيقة، جعفر ماجد، الحبيب اللمسي، حمادي الساحلي، وأخرون غير مواظبين. وكان أغلب المواضيع يتمحور حول أخبار الكتب، ما صدر منها وما سيصدر، وأنباء المخطوطات ما اكتشف منها وما هو بصدد التحقيق. ويمرّ منادي المزاد بالدكان فيبدي الضيوف آراءهم فيما يعرضه من كتب، فيتبع الكتبي نصحهم أو يتغاضى عنه، وكثيرا ما كان الجيلاني ينصح بشراء بعض المخطوطات لكونه مستشارا للمكتبة الوطنية في انتقاء المخطوطات وشرائها.

ثاني المنتديات هو بيت محمود شمام بضاحية رادس، وهو يجمع عشية الجمعة حول ذلك القاضي المتقاعد، المنشغل بتدوين تاريخ النخبة التونسية، طائفة من المحامين والقضاة والمثقفين، ويدور فيه الحوار حول مختلف المواضيع، القانونية والاجتماعية منها خاصة، ممزوجة بلطائف القصص والمرويات والفوائد يتبادلها هذا وذاك حسب اختلاف المشارب، فمن الطيب العنابي (المحامي) إلى محمد اليعلاوي (الباحث) إلى الحبيب نويره (الدبلوماسي) إلى حمادي الساحلي (المؤرخ) إلى الهاشمي زين العابدين (الشاعر والمربي) وأخرين.

ثالث هذه المنتديات ينعقد عند زرياب، وهو الإسم المستعار الذي اختاره الموسيقار صالح المهدي فعُرف به، وكان يجمع حول الرجل في مكتبه بشارع فلسطين، وعلى فترات متباعدة، طائفة من أصدقاء اختارهم لاستظرافه أحوالهم أو لتمازجه مع طباعهم، وكانوا من مشارب مختلفة، فيهم الأمير الشاذلي إبن آخر البايات، وابن شاعر البلاط الحسيني الشاذلي خزندار، ووزراء ثقافة سابقون كزكرياء بن مصطفى أو الشاذلي القليبي أو البشير بن سلامة، وبعض وجوه الأسر القديمة كالجلولي والنيفر وبلقاضي. وأكثر الحديث كان استذكارا للزمن الجميل، واستحضارا لأطياف وأعمال من غيّبهم الموت بعد أن تركوا بصماتهم في ملامح تونس الحديثة.

وأختم لتأييد ما كنت أذكره بما كتبه الأديب عبد القادر بلحاج نصر عن زميله الذي رافقه في عدد من المحافل الأدبية والإدارية، وخاصة في الديوان القومي البيداغوجي، إذ يقول في حفل أربيعينية المقام يوم 5 جوان 2010 بالنادي الثقافي أبو القاسم الشابي بالوردية: «وهل لأهل الأدب أن يسألوا: ترى أيّ ناد أدبي، أيّ مؤسسة ثقافية، أيّ إنجاز فكري، أيّ مجلس من مجالس الإبداع والخلق في تونس لم يكن سي الجيلاني أحد مؤسّسيه، أو أحد مريديه، أو أحد داعميه، حتى أنّني أقول: مهما اختلفت الأيام والأزمنة، مهما تبدّلت الوجوه وازدحمت الفضاءات الأدبية بالأولين والأخرين فإنّ نبض الجيلاني سيظل حيّا، رمزا من رموز الحياة، واستمرار الفكر والثقافة والإبداع فيها، وعلامة مضيئة نهتدي بها جميعا».

إنّ سي الجيلاني بن الحاج يحيي علامة في تاريخنا الأدبيّ لن تتكرّر.

الأستاذ الجيلاني بالحاج يحيى
والخطة القومية لمحو الأمية والتربية الإجتماعية
1965-1970

الأستاذ: عبد الحق الأسود

تعرّفت وتعاملت مع مقاومة الأمية وتعليم الكبار منذ نعومة أظفاري وأنا أزاول التعليم الثانوي بالمعهد التكميلي بنابل في الأربعينيات من القرن الماضي، وذلك في نطاق نشاطي ضمن الحركة الكشفية وجمعية الطالب النابلي اللتين كانتا تنظّمان دروس رفع الأمية للمواطنين.

وفي السنة الدراسية 1955 - 1956 باشرت التعليم بمدرسة الماتلين من ولاية بنزرت، شاركت أثناءها في أول حملة وطنية قامت بها أول حكومة الاستقلال لرفع الأمية بإشراف وزير التربية جلول فارس.

وبداية من سنة 1958 وإلى 1963 باشرت خطة كاتب عام لولاية سوسة وتشرّفت بمعرفة الوالي عبد الحميد القاضي الذي كان مثال الاستقامة والعمل الصادق والتفاني في البذل والعطاء بكلّ صمت، وقد تعلمت منه الكثير من الخصال التي ساعدتني في العمل الإداري والسياسي بقية مشواري إلى التقاعد. ومن بين المشاريع التي قمنا بها في الولاية، تنظيم خطة لمحو أمية الآلاف من العمال الذين كانوا يشتغلون بالحضائر.

ثم انتقلت إلى نابل حيث باشرت خطة كاتب عام لجنة التنسيق إلى 1965، وفي زيارتي لبلدة تازركة المناضلة عرضت على إطاراتها فكرة تتويج الجهاد الأصغر ضد الاستعمار بالجهاد الأكبر، جهاد النفس، واقترحت عليهم خطة شاملة لمحو الأمية عن جميع نساء ورجال تازركة الأميين، فحصل التجاوب بيننا وشرعنا في التنفيذ سنة 1964 بالتعاون مع وزارة الثقافة والمنظمة العالمية للعلوم والثقافة «اليونسكو».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ وزارة الثقافة التي تأسّست منذ 1962 والتي من مشمولات أنظارها برنامج محو الأمية لم تجد من وزارة التربية المساعدة خاصة من خلال تسخير فضاءاتها المدرسية ورجال التعليم، ما دفع بوزارة الثقافة إلى استغلال دور الشعب وانتداب معلمين جدد يعملون وقتا كاملا، وكان عليّ، بالنسبة لتجربة تازركة، أن أتصل بوزير التربية محمود المسعدي للحصول على ترخيص استعمال فضاءات المدارس والاعتماد على المعلمين بتازركة. ورغم أنّ محمود المسعدي هو ابن جهتي ومن تازركة نفسها، ورغم أنّي تعاونت معه زمن معركة التحرير عندما كنت عضو المكتب التنفيذي للاتحاد العام لطلبة تونس وهو المساعد للأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل فرحات حشاد، فإنّ مهمة إقناعه بضرورة التعاون مع وزارة الثقافة بدت صعبة، ولكن الذي سهّلها هو الذي تشرفت بمعرفته في ذلك الوقت أخي وصديقي الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحيي الذي كان يشغل خطة عضو ديوان وزير التربية وسمعت

عنه كلّ خير من حيث الكفاءة والاستقامة والقدرة على الانسجام والإقناع، فتعاونا على أن يتنازل محمود المسعدي عن موقفه السابق الرافض للتعاون مع وزارة الثقافة، وانطلقت تجربة تازركة وتبنّتها منظمة «اليونسكو» وجعلت منها أنموذجا ومخبرا في مجال تربية الكبار.

وفي 8 سبتمبر 1965، انتظم بطهران بإيران وبمبادرة من «اليونسكو» مؤتمر جمع وزراء التربية في العالم قصد وضع خطة شاملة لرفع الأمية وحث جميع الدول المعنية على الالتزام بها، واستجابت تونس بسرعة ببعث ديوان لرفع الأمية والتربية الاجتماعية وكلّفني الرئيس الحبيب بورقيبة بالاشراف عليه في أكتوبر 1965، فكان عليّ للقيام بهذه الرسالة الهامة والصعبة وختيار المساعدين ممّن تتوفّر فيهم الكفاءة والتفاني بكلّ صدق وإخلاص لإنجاح الخطة ورفع التحدي وطنيا وعالميا. وبالطبع فكّرت في الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحيي الذي أعانني على بعث تجربة تازركة، فخاطبته وتجاوب معي وتعاونّا من جديد على أخذ رخصة الوزير محمود المسعدي لتسخير فضاءات وزارة التربية وإطارات التعليم لتنفيذ الخطة التونسية لمحو الأمية من جهة، ومن جهة أخرى للحصول على موافقته بأن يلتحق الأستاذ الجيلاني بديوان التربية الاجتماعية مشرفا على إدارة التعليم به.

إنّ العمل الذي قمنا به كأسرة التربية الإجتماعية فيه قدر كبير من التعاون والتضامن والبذل المشترك، إنّما تبقى مساهمة الأخ الجيلاني بن الحاج يحيي هي الأهم والبارزة خاصة في محورين أساسيين نصت عليهما توصيات مؤتمر طهران وهما:

.جعل محتوى التعليم وظيفيا، أي يحتوي إلى جانب القراءة والكتابة والحساب، إضافات مهنية وثقافية واجتماعية تستجيب للمحيط والبيئة.

. إستغلال الوسائل السمعية البصرية في تبليغ برامج التعليم.

وفعلا، ففي المجال الأول تمّ إعداد مخبر للتجارب في مجال التعليم الوظيفي، وذلك بتعاضدية فلاحية تُسمّى «الرسائل» بمرناق، وذلك بالتعاون مع منظمة «اليونسكو» وأمكن شيئا فشيئا تطوير برامج التعليم نحو الوظيفية تشمل أصناف المتعلمين المختلفة.

أما فيما يخص الوسائل السمعية البصرية، فقد توصّلنا .كأول بلد عربي. إلى بعث برنامج تلفزي وإذاعي يومي ولمدة نصف ساعة تستقبله أفواج منظمة بكامل أنحاء البلاد إلى جانب عموم المشاهدين، كما أنّ هذا البرنامج واكبته نشرات له يوميا بصحيفة «العمل» وكتيبات بها البرنامج وتمارين تصدر كلّ ثلاثة أشهر وتباع بمراكز بيع الدخان بسعر رمزي قدره مائة مليما.

هذا وإنّ الجوائز الكثيرة التي تحصّلت عليها الخطة القومية لمحو الأمية والتربية الاجتماعية كانت عديدة، لعل من أبرزها جائزتيْن عالميتيْن كانت جهود الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحيي سببا رئيسيا في الإحراز عليها وهي:

.جائزة من اليابان تتويجا لنجاح البرمجة التلفزية لمحو الأمية وتعليم الكبار وذلك سنة 1968.

.جائزة «اليونسكو» في نجاح التعليم الوظيفي لبرامج محو الأمية بتونس وذلك بمناسبة اليوم العالمي لمحو الأمية في8 سبتمبر 1969.

هذه بعض الإشارات العابرة حول مدى مساهمة الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحيي في إنجاح الخطة القومية لمحو الأمية والتربية الاجتماعية بتونس بين 1965 و 1970 والتي شملت أكثر من مائة وخمسين ألفا من النساء والرجال. وأؤكّد من جديد على ما قدّمه أخي سي الجيلاني طيلة هذه السنوات من جهده وصبره وحكمته وتعاونه على تجاوز الصعاب، وكانت كثيرة وتونس في بداية استقلالها.

وفي الختام أريد أن أمجّد جهود جمعية صيانة جزيرة جربة التي تقوم بها منذ عشرات السنين لتحقيق رسالتها على أحسن الوجوه، وقد كنت دائما مبهورا خاصة بما قدّمته من ندوات ودراسات وتآليف وفاء لأبناء الجزيرة البررة الذي أشعّوا فيها الخير، وكذلك في الوطن سواء زمن التحرير من الهيمنة الأجنبية، أو منذ الاستقلال في النهوض بالمجتمع والرقي به لتبقى تونس عزيزة ومنيعة ورائدة.

نابل في 24 أفريل 2015

الجيلاني بن الحاج يحي بريشة رسّام الكاريكاتور الأشهر في تونس: علي عبيد

الأستاذ: أحمد الحمروني

كان قريبا من الأوساط الشعبيّة أينما وُجد، يستمدّ منها العبر ويلتقط النوادر والحكايات.
الصورة في القاهرة بأحد الأحياء الشعبيّة

تمثّل مقامات الجيلاني بن الحاج يحيي (1929 - 2010م)(1) على قلّتها، جنسا أدبيّا متميّزا في تراثه ومميّزا لشخصيته، لا كباحث محقّق ولغويّ معجميّ، بل كأديب معجب ومتأثر بحسين الجزيري (1898 - 1974) شاعر الأزجال ومؤلّف المقامات من أدباء مقهى «تحت السور» بتونس.

لهذا الاعتبار ارتأينا في ذكراه، إضافة إلى مقالاتنا السالفة عنه واجتنابا لتكرار ما نشرناه، أن نوثّق مقاماته جمعا وترتيبا وأن ندرسها شكلا ومضمونا.

ومن ذلك انتهينا إلى تقدير مساهمته في إحياء هذا الفنّ الأصيل بتنويع أساليب الإضحاك وتوظيف السخرية في نقد مشاهد ومواقف من حياتنا اليومية الراهنة.

سعدنا بمعرفته متأخرين وإن لم نكن من جيله وخالطناه وعاشرناه في الحياة وفي الأدب والعلم فوجدناه في مجالسه كما هو في مقاماته، يتدفّق حيوية وشبابا وفكاهة يشمل بها الحاضرين والمرافقين على غرار الأدبّاء السالفين، وكذلك كان الأدب في أصل نشأته على المائدة كالطعام أخذ من كلّ شيء بطرف.

والذين عرفوه وعرفوا حسين الجزيري من قبله فطنوا الى التشابه بينهما لكأنّ روح السابق حلّت في جسد اللاّحق حسب اعتقاد الهنود في التناسخ. وكم كان هذا معجبا بذاك! قال إنه: «من أبرز شعراء تونس الضاحكين الساخرين، إذ أنّ لشعره قيمة وثائقية هامة حيث يعتبر مرآة لعصره في صدق نقله ودقّة شاعريته وعنايته بالجزئيات.» (2)

وقد نشر لصاحبه عديد القصائد في «الجزيرة» الجربية، ونشر له في ركن «مع الظرفاء» المقامة الضرسية(3). وذكر مرّة أخرى بأنّ «حسين الجزيري شاعر لذيذ الأسلوب، حلو الشعر. وهو شاعر ساخر متهكّم يستخرج الضحك من روح الألم، ويتخيّر الألفاظ ذات الوقع المطلوب من اللغة الفصحى أو اللغة العامية، رائع في تصيّد النكتة وصياغة الفكاهة. وشعره كله هادف.»(4)

وبحث عن«جزيريّ» جديد فوجده في معرفة حديثة العهد في شخص الشاعر الموهوب عبد المجيد شيبة، نزيل سوسة المشهور بقصيدة «منحة الإنتاج» أو «علفة الدجاج»!

هذه نماذج من أدب المجالس الذي يروق لسي الجيلاني. ومن تلك المجالس ظهر فنّ المقامة، ولكلّ مقام مقال، كما يقال. وكذلك أراد صاحبنا أن تكون مقاماته في روحها المرحة وهدفها النقدي الإصلاحي وجزالة لغتها وسلاسة أسلوبها، لا فرق بين ما يكتبه هو وبين ما يعجبه فيختاره لنا من مقامات القدامى والمحدثين. ولكن للأسف لم يحرّر فيما وصلنا منشورا إلا ثلاثا، إثنتين في «الجزيرة» هما: «المقامة البلدية» (5) و«المقامة الجربية» (6) وثالثة في «القنال» البنزرتية هي «المقامة البنزرتية» (7) وكأن ركن «مع الظرفاء» قد شغله عن الاستمرار في كتابة المقامات مع مشاغل أخرى وكسل الشيوخ مما أوهن القلب وأوقف العمر.

أما المقامة البلدية فهي حسب عنوانها رسالة قصيرة موجهة إلى رؤساء بلديات جزيرة جربة ومكونات المجتمع المدني بها للمحافظة على تراثها وجمال بيئتها ولدعم التنمية بها في السياحة وغيرها، وقد أرسلها سي الجيلاني إلى السيد الصادق بن مهني فأرسلها بدوره إلى السيد لطفي الجريري مدير جريدة «الجزيرة» داعما بها رسالته الطويلة العريضة المتضمنة لأسئلة ومقترحات طرحها على نفس الجهات: رؤساء البلديات الثلاث ومن ورائهم بقية الهياكل والجمعيات. كان ذلك في سنة 200. وبعد سنتين، أي في سنة 2002، توجّه عبر نفس الجريدة إلى السيد فريد القاضي رئيس جمعية صيانة جزيرة جربة «بالمقامة الجربية» في شكل رسالة ملتزمة بمقومات المقامة من سجع وازدواج وتضمين للشعر إلى جانب الفكاهة طبعا، غير أنه استعاض عن الحبكة القصصية وموضوع الكدية وما تقتضيه من حيلة بمضامين أخرى ليست بعيدة عن الوليمة بما أنها رسالة شكر على الدعوة الكريمة والهدية التقليدية بمناسبة حفل ديني بجامع بومسور أقيم في أواخر أفريل 1991. وكان قد كتب الرسالة أو المقامة في 10/5/1991 أي بعد عشرة أيام من عودته إلى تونس العاصمة، على أنّها لم تُنشر إلاّ سنة 2002 أي بعد أكثر من عشر سنوات لأنه بعد أن كتبها سها عنها ثم عثر عليها ضمن أوراقه المبعثرة بعد أكثر من عشر سنوات. كما قلت. وأخبر بذلك المرسل

إليه فاقترح عليه نشرها رغم الفارق الزمني، رغم عقد كامل! وفيها أسف المغترب لما حلّ بالموطن، غير أنّ الذكرى الجميلة عادت مسرعة مرفوقة بالأمل بفضل جهود أبناء الجزيرة وجمعيتهم النشيطة. وبالمناسبة تذكر الكدرون الأبيض الذي أهداه إليه رئيس جمعية الصيانة آنذاك . سي فريد القاضي . كما تذكّر فعل صديقه . سي مسعود يامون . في الكسكسي وانتقام الكسكسي منه على غرار اللاقمي القابسي. وكم كان صاحبي متخوفا على صديقه الفنان المصور لمساجد جربة وغيرها وعلى تلك المعالم إن رزئت فيه، أبقاه الله نخرا للوطن.

أما «المقامة البنزرتية» فلا علاقة لها بجربة، بصريح عنوانها، غير أنها لا تشذّ عن سابقتيْها، فهي أيضا رسالة طويلة موجهة إلى المناضل السيد صالح الدريدي صاحب جريدة «القنال» ومنشورة بها ومستعرضة بالثناء جميع أركانها ومتضمّنة بالتالي لمختلف مشاغل أبناء الجهة في مختلف المجالات من التنمية إلى التغذية فإلى التراث وإلى الفكاهة. وكان صاحبي من قرائها المثابرين وبكتّابها من العارفين. والفضل يعود إلى سي عبد الواحد براهم الذي كان يأخذنا بين الفصل والفصل إلى بلده الأمين وصديقه الكريم. هذا هو سي الجيلاني الأديب اللّبيب الذي لا تعوزه اللغة التي فكّ عجمتها عن الكتابة في المقامة التي تضاهي القصيدة.

1 - المقامة البلدية:

حدثنا (الصادق) الهمام، المتيم بجزيرة الأحلام، القادر على إيقاظ النيام، اللافت لأنظار المسؤولين والحكام، بأسلوبه الجريء المقدام، لما حلّ بالجزيرة الفيحاء من آفات، وما طرأ عليها من سلبيات، تكاد أن نفقدها طابعها الطريف، ممّا جعل أهلها ومحبّيها يخشون من مستقبل مخيف ،وهم يتوجّهون بنداء حارّ إلى رؤساء البلديات أن يهبوا لنجدتها في أسرع الأوقات، وأن يعملوا بمزيد الجدّ والثبات لوضع حد لكلّ التجاوزات والمخالفات، ويطبقوا القوانين على جميع الفئات، من كافة الطبقات، ليكونوا عند حسن ظن المنتخبين والمنتخبات، وينقذوا الجزيرة ومعالمها من التشويهات، وسينالون «الأجر» في هذه الدنيا والثواب بعد الممات !

ولعل العمل المنسق لجميع البلديات، هو الكفيل بالنتائج الطيبات، وهو الضامن لسدّ الثغرات، والموفّر للأمكانيات، إذ مصلحة الجزيرة هو هدف الجميع، والمحافظة على رونقها وجمالها شيئ رائع وبديع !

أما المتساكنون الأجلاّء، فينبغي أن يكونوا لجزيرتهم مخلصين أوفياء، وأن يحافظوا على ما تبقّى من تراث الأجداد والآباء، وأن يغاروا على تراثهم المجيد التليد، وأن يعتزوا بجمال جزيرتهم الفتّان الفريد !»

2 - المقامة الجربية (8)

«حضرة الأخ الكريم، والصديق الحميم، إليك منّي خالص الودّ والثناء، على ما أوليته من كرم ووفاء، وما قدّمته لأبناء الجزيرة من خدمات سيكتب لها البقاء.

لقد كان لذلك الحفل الدّيني البهيج بالجامع الكبير، جمال روحي ليس له نظير، تجلّت فيه الأسرار الربانية، وتعطرت أرجاؤه بروائح الإباضية، وامتلأت البطون بالكسكسي الجربي ولحم (العلوش) الشهيّ الطريّ الأمر الذي أفاق صديقنا(مسعود) من سباته العميق، واسترجع نشاطه بعد القلق والضيق، وقد التهم ما يزيد على خمسة صحون، ازدردها كالمجنون، ولما حذّرته من مغبّة الإفراط في الطعام، وأنه عرضة لوجع البطن والابتشام، أجابني ببرودة دم وابتسام:

أحسن ما في قطرنا يلتمسُ xxx من الطعام الطابخيّ الكسكسُ

ونسي المسكين أنه قاسى من الأوجاع والآلام، عندما شرب (اللاقمي) بقابس منذ أيام، وأصابه دوار حتى وهنت عنه العظام!

حضرة الأخ الكريم، والصديق الحميم

إنّ هديتك (للكدرون) الأبيض الوضّاح، قد حلت في نفسي محلّ القبول والارتياح، ولما لبسته وطفقت أتبختر به ذات اليمين وذات الشمال، تذكرت عهد الصبا والجمال، وطفولتي التي قضيت شطرا منها بين الشواطئ والرمال، حيث كنا نسير إليها على ظهور الحمير والبغال، وسبحان مغيّر الأحوال!

وسوف لا أنسى أنك أحييت ما كان كامنا في نفسي من الحنين، إلى مسقط الرأس الذي هجرته مكرها منذ أعوام وسنين، بسبب نزوح أهلي وعشيرتي أجمعين، بحيث لم يبق في المنزل أحد من الآدميين، وأصبحت حومة (تملال الحلو) قفراء من الأهل والبنين.

ولما تجولت بـ(ميدون) و(المحبوبيين)، لم أجد أحد من المعروفين، لا من القدماء ولا من المحدثين، سوى بعض المعارف من الزائرين العابرين، وقد وجدتهم مثلي من المتحسّرين، على مآثر الآباء والأجداد والأقربين.

أمّا الآن وقد بدأت المياه ترجع إلى مجاريها، واستعادت الذاكرة ما كان مخزونا من أيامها ولياليها، استقر الرأي على تدارك ما فات، وقضاء أمتع الأوقات، واغتنام الفرص والمناسبات، بزيارة الجزيرة ونخيلها الباسقات، والإسهام في (صيانة) معالمها وآثارها الباقيات، الدالة على ما كان لها من أصالة وبسالة وتصد للغزوات والهجومات، وإني لمقبل عليها وآت.

هذا وإنّني لتلك النخبة النيّرة التي التفّت حول (جمعية الصيانة) لمن المكبرين، للجهود التي يبذلوها متطوعين، للحفاظ على ما بها من بقايا الأجداد الأولين، الذين كافحوا وناضلوا عديد الأقوام المستعمرين، وثاروا ضد الطغاة الظالمين، في مختلف العصور وعلى مر السنين، فهنيئا لهم جميعا بهذا الفوز المبين، والله لا يضيع أجر المحسنين، وتحية و سلاما لك ولأهل جربة أجمعين.

3 . المقامة البنزرتية:

«حدّثنا فُضيلة الشيخ الدحداح، القادر على التحدّث مع الليل إلى الصباح، قال: تصفّحت (عدد «القنال» الفوّاح) بالملامح والأحداث والملاحظات، وروائع الآداب والفنون والنكات، والمزدانة بالصور والرسوم والكاريكاتوريات، والأبواب القارة مثل (التشكرات والصفعات) و(عين الرقيب) الذي يلاحق المتلاعبين والإستغلاليين الذين يبعثون بمصالح المواطنين والمواطنات. و(الوصايا العشر) الموجّهة إلى بعض المسؤولين من جميع الفئات. أما (دق الباب تسمع الجواب) فهي نافذة للمشاكسات، يجد فيها القراء الحلول لمختلف المشكلات، التي تعترض بعض البنين والبنات، من المراهقين والمراهقات، فللّه درّ (الحاج الزهواني)، الذي يتلاعب بالألفاظ والمعاني، ويشير بأسلوبه الرقيق إلى الحلّ الناجح الدقيق، لكلّ معضلة تعترض القراء في الطريق، و(ملحوظات جوال) التي يكتبها (أحمد جبالية) الناقد المفضال، والذي يعالج في كلّ مقال مواطن الضعف والإخلال، ويدعو إلى إصلاح الحال في أقرب الآجال.

و(أبو غسان) الذي يودّ أن يصبح من أرباب المسؤوليات، ليقول بجرأة ما لديه من آراء ونظريات، فإنّي أقترح على مدير جريدة (القنال) أن يسعى لتحقيق مبتغاه، حتّى نرى ما سوف يصنع لما تحبه وترضاه.

وهذا الكاتب الظريف يريد أن يكون حاكما يصدر الأحكام، فقد تبيّن أنه بالإمكان أن يصبح من أبرز الحكام، لأنه ذو اطلاع واسع على ما يجري في ولاية بنزرت من شؤون في القطاعين الخاص والعام.

وما ينتظره(المنتظر) في سنة 2003 من إصلاح للطرقات، وتجديد لبعض الحافلات، وإيجاد الحلول النهائية لتفادي الفيضانات، وتدارك الفراغ الذي تشكو منه الأنشطة الثقافية والتظاهرات، مراجعة موضوع المنح والمساعدات، التي تمنحها الولاية للبلديات، كل ذلك ممّا تعتبره جريدة (القنال) من الأولويات، وهي بذلك تساعد المسؤولين وتلفت نظرهم إلى وجوب تدارك هذه السلبيات، حتّى تبادر بالقيام بما يلزم من الإصلاحات، وبخاصة من طرف العناية التي يوليها لهذه الجهة الوالي المثقّف الأصيل، ويسهر على مسيرة

تنميتها وازدهارها بكل حزم ونشاط وعمل دؤوب جليل، والصفحة التي يشرف عليها الشاعر المجيد، البشير المشرقي الفارس الصنديد، يجد فيها القارئ الغذاء الفكري النافع المفيد، من إبداع في المقال وفي القصيد، وهي لعمري باقة فوّاحة من الورود والرياحين، لأدباء وشعراء من القدماء والمحدثين، واستجوابات لشيوخ من القصاصين المبدعين، أمثال (عبد الواحد براهم) الأديب البنزرتي الموهوب، الذي تمكّن بفضل إبداعه الرفيع من ملء الجيوب، بما أحرزه من جوائز تنشرح لها الصدور والقلوب، وسبحانه يرزق من عباده من يشاء بغير حساب، وما على المبدعين إلا طرق الأبواب.

وصفحة (الصحة والتغذية والجمال) في جريدة القنال، فهي وصفة جيدة تضمن لك السعادة والصحة وراحة البال، مثل (خل التفاح) الذي له فاعلية فائقة في التخفيض من كمية الكوليسترول، إلى المستوى الطبّي المقبول، ومثل (الكرنب) الذي يعتبر دواء، أكثر منه غذاء، إذ أنّه يقوّي المرضى وينعش الضعفاء، ومثل (الكاكاوية) الغنية بالمواد البروتينية والدهنية والسكرية، وفيها بعض الأملاح المعدنية، ومثل(القنارية) المفيدة لمرضى القلب ومرضى السكري والكولسترول، وهي متوفرة بكثرة وسعرها مقبول.

وفي ركن (مع الظرفاء) طرائف ونوادر هادفة مستمدة من تراث الأجداد والآباء، ومن الحكماء والظرفاء، تروّح عن النفوس و(تفرهد) على القراء.

أما (رائحة المدينة) التي يدبّجها يراع كاتب قدير، له باع طويل من معرفة خبايا المجتمع البنزرتي الكبير، وهو من (البسطاجية) القلائل الذين أدركتهم حرفة الأدب، أسلوبه من السهل الممتنع الذي يفهمه كلّ العرب، ومقالاته في جريدة (القنال) تحتلّ مكانة رفيعة المنال، لما فيها من نكهة وطرافة يطرب لها القراء ويستمتع بمحتواها الرجال والنساء. وهذا الكاتب الفنان، هو (صالح الدمس) أصيل منزل عبد الرحمان، وإني لفي شوق للتعرف على طلعته البهية، سواء في الصباح أو في العشية.

وصفحة (البيت السعيد)، فيها من المواضيع للجنس اللطيف ما ينفع ويفيد، وهي تحتوي على (قطوس في شكارة) مع صور كاريكاتورية جميلة...(طيارة)!

وصفحة (قاع المدينة) ثرية بكلّ ما هو تراثي قديم وعتيق، ما يجعلك. أيها القارئ. تعيش لحظات ممتعة دون قلق أو ضيق، وتطلع على (بيت عظوم) بالقيروان، الراسخين في العلم والقضاء من قديم الزمان.

كما تطالع دراسة تاريخية للباحث المهندس بو عيطة عن المرسى القديم، الذي أنشئ قبل مدينة بنزرت ذات الخير العميم، وصفاء الأديم. كما تتعرّف في هذا الركن على تاريخ (زاوية الوليّ الصالح سيدي جلول) الأثرية، التي لعبت دورا هاما في الحياة الدينية والعلمية، ومقرّها أصبح الآن فضاء لجمعية صيانة المدينة البنزرتية، وقد كتب هذا الفصل التاريخي مراد بن جلول الأستاذ بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية.

وفي كل عدد من جريدة (القنال) أيها القارئ اللبيب، تجد المتعة والإفادة والطرافة التي تجعلك تنشر خبرها بين كل صديق وحبيب.

وما كان لهذه الجريدة الجهوية الفيحاء، أن تكون بمثل هذا التنوع والثراء، لولا السهر على مسيرتها طيلة الستة والثلاثين من السنين الطوال، من قبل مؤسّسها ومديرها المكافح الذي لم يأبه بالمصاعب والأهوال، وبذل . ولا يزال . في سبيل بقائها وازدهارها كل غال ونفيس من الجهود والأموال، الصديق الحميم صالح الدريدي الشهم الكريم، حياه الله، وأمتعه بمزيد الصحة العافية ليواصل رعاية(القنال) بحزمه الذي تعودناه، وتحية الى كافة أسرتها الكرام، ومنّي عليك السلام.

حافظ ونكم الجيلاني إبن الحاج يحيي»

(×) قدم في ذكراه بجربة – حومة السوق في 24/4/2015

(1) أنظر عنه: إبن مهني(الصادق): عمي الجيلاني/أنت وإن غادرتنا لم ولن ترحل. في: الجزيرة (جربة)،ع 257،ماي 2010.

ص 2، الجريري (لطفي): الأستاذ الفاضل حافظ الود الجيلاني بن الحاج يحيي في ذمة الله. في: الجزيرة، ع 257، ماي 2010، ص 2، الحمروني (أحمد): كتاب الجيلاني بن الحاج يحيي عن سليمان الجادوي. في : الملحق الثقافي لجريدة «الحرية» 27 / 9 / 2007، مع الجيلاني بن الحاج يحيي في كتبه. في : الملحق الثقافي لجريدة «الحرية» 31/1/2008، ص 4 ، للوفاء والذكرى/الجيلاني بن الحاج يحيي الذي فارقنا في:الملحق الثقافي لجريدة الحرية 29/4/2010، ص 3 (حياته ومؤلفاته) وفي كتاب «أربيعينية فقيد الأدب التونسي الجيلاني بن الحاج يحيي. نادي القصة واتّحاد الكتاب التونسيين، تونس، جوان 2010، الجيلاني بن الحاج يحي. في المجلة الصادقية، ع 54، جوان 2010، ص 24-22، من روحه إلى روحه في أربعينية الجيلاني بن الحاج يحيي. في : كتاب الأربعينية، ص 23 - 30، أبو الحسن علي الحصري لمحمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيي في المجلة الصادقية، ع 55، نوفمبر 2010، ص 44-40. ابن الحاج يحيي(الجيلاني) في: الحمروني: معهم في كتبهم(مخطوط)، ابن الحاج يحيي(الجيلاني) في : الحمروني: أسلاف وأخلاف/ معلمة أعلام تونس(مخطوط)، الطبجي(حسين): مسيرة حياة أم نص نثري..؟ (في تكريم الجيلاني بن الحاج يحي) في الجزيرة، ع 236 جوان 2008 ص15، اللباسي(الطيب): أقول وفي قلبي لوعة/ في رثاء الجيلاني بن الحاج يحيي. في : الجزيرة ع 257 ماي 2010، ص 10، مجهول : مع الأديب والصحفي والباحث الجيلاني بن الحاج يحيي. في الجزيرة ع 188 فيفري 2004 ص 11 ؛ Tmarzizet(Kamel) Hommage à un tunisien djerbien d'exception... in al-Jazira (journal publié à Djerba) n° 258, juin 2010 p. 2

(2) تصدير لقصيدة الجزيري «بين أمس ويوم». في الجزيرة ، ع 147 ماي 2000، ص 2.

(3) الجزيرة، ع 152 أكتوبر 2000، ص 2.

(4) تصدير لقصيدة الجزيري «الطواويس» في الجزيرة، ع 245، أفريل 2009، ص 7.

(5) الجزيرة، ع146 أفريل 2000، ص 3.

(6) الجزيرة، ع 166فيفري 2002، ص 12.

(7) القنال، 17/2/2003 . في :كتاب أربعينية...، ص 75-73 وقد نبهنا لطفي الجريري إلى أن للجيلاني مقامة رابعة نشرها بجريدة الجزيرة معلقة على أركانها وشبيهة بالمقامة البنزرتية.

(8) صدرها بما يلي: نظمت (جمعية صيانة جزيرة جربة) ندوة حول(جربة جزيرة المساجد) أيام:26 و27 و28 أفريل 1991 وأقيم بهذه المناسبة حفل ديني بهيج بـ(جامع بومسور) الجامع الكبير، صحبة عشاء تقليدي لطيف، أسهمت فيه بمداخلة تناسب المقام. وبعد رجوعي إلى تونس، كتبت هذه المقامة قصد إرسالها إلى الصديق فريد القاضي رئيس جمعية الصيانة إذ ذاك، فسهوت عن ذلك. وبعد سنوات وجدتها بين أوراقي المبعثرة هنا وهناك، فاقترح علي نشرها في جريدة (الجزيرة) الغرّاء راجيا من القراء الكرام أن تحظى لديهم بالقبول.

(9) هو الصديق الوفي مسعود يامون ذو الطيبة والقلب الكبير(تعليق الجيلاني).

(10) الكدرون: أهداه إليّ الصديق فريد القاضي رئيس جمعية الصيانة آنذاك (تعليق الجيلاني).

(11) كان ذلك في سنة 1991، أما الآن فقد سعدت بمجموعة نيرة من الأصدقاء والخلاّن بالجزيرة الفيحاء(تعليق الجيلاني).

في جلسة مع وزير الثقافة زكريا بن مصطفى، الجيلاني بن الحاج يحي (أقصى اليمين)، ثمّ محمد الرزوقي، الوزير، جعفر ماجد، نور الدّين صمود وفتحي زغندة

كان يتنسّم رائحة جزيرته الأم، وكلّما جاء إلاّ وكانت له مداعبة ومشاكسة ومواقف طريفة مع البعض من أصدقائه

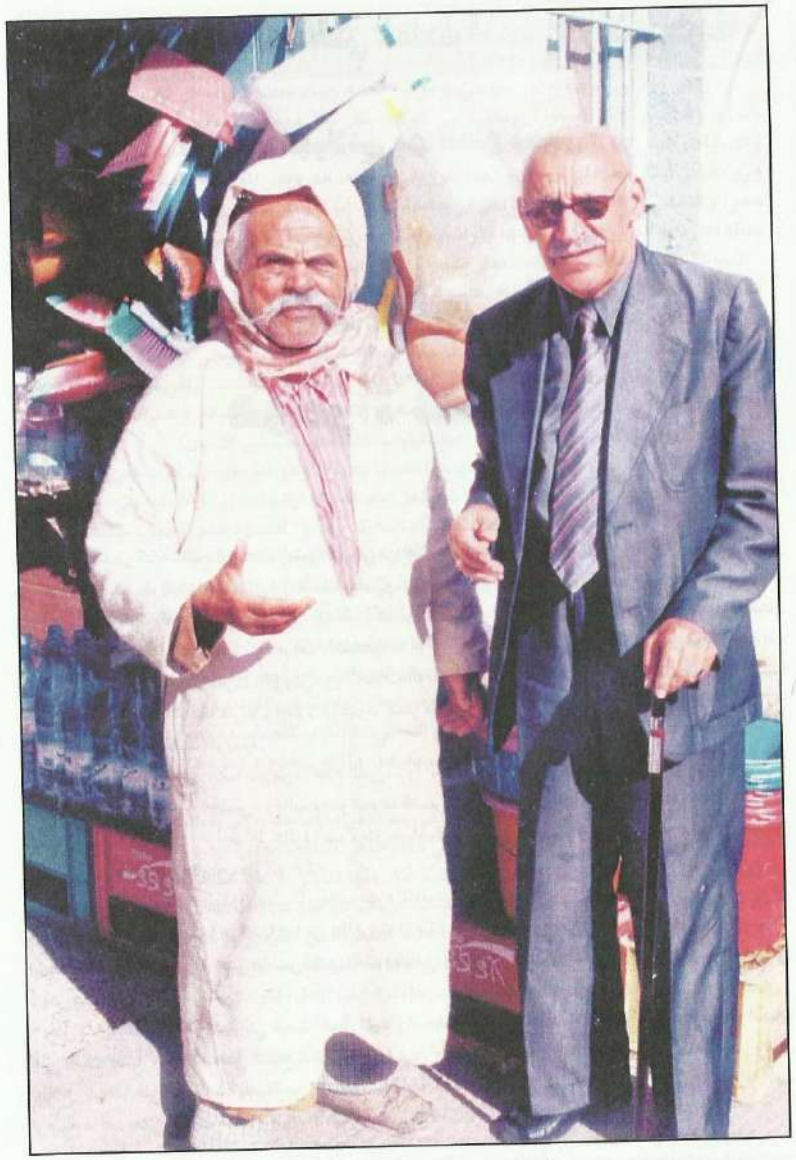

في حوار مع يوسف عبد العاطي للملحق الثقافي لجريدة «الحرية» (*)

الأديب الجيلاني بن الحاج يحيى :

«كلّ أثر أدبي وفنّي هو مرآة عصره»

بمناسبة صدور كتابه «شيخ الصحافة البشير الفورتي من خلال آثاره» عن سلسلة «ذاكرة وإبداع» استضاف الملحق الثقافي الأسبوعي لجريدة «الحرية» فقيدنا الأستاذ الجيلاني في حوار شيّق أجراه معه الأديب يوسف عبد العاطي الذي قال في مقدّمة الحوار الذي نُشر على جزءيْن: إنّ هذا الكتاب ينضاف إلى سلسلة الدراسات الجادّة التي قام بها الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحيى التي اهتمّت بالتعريف بالشخصيات الوطنيّة الفاعلة في تاريخ بلادنا، ككتبه عن الطاهر الحداد، حياته وتراثه، أبي الحسن الحصري القيرواني، وبالأحداث الوطنية البارزة التي شهدتها بلادنا وكانت علامة مضيئة استحقّت منّا الوقوف عندها تعريفا وإجلالا وإكبارا، كمعركة الزلاج وتاريخ جامع الزيتونة وصفحات من تاريخ تونس، والعادات والتقاليد التونسية.

والجيلاني بن الحاج يحيى أيضا علم من الأعلام الذين أثروا الساحة الثقافية في بلادنا بإنتاجهم الإبداعي، إذ صدر له «ترويح النفوس» و«أنيس الجليس» و«النديم»، ومجموعة قصص للأطفال... وبالتحقيق في عدّة مخطوطات كان يلفّها النسيان لولا مثابرته على إخراجها إلى دائرة الضوء مثل مساهمته في تحقيق «خريدة القصر وجريدة العصر»، و«يا ليل الصبّ ومعارضاتها»، و«تاريخ معالم التوحيد»..

ولكن ما يُحسب بالفعل لهذا الأديب إلى جانب نشره للقاموس الجديد «الألفبائي»، والمعجم العربي الأساسي، هو حضوره الفاعل في أغلب ما عرفته بلادنا من نظاهرات ثقافيّة وأدبيّة، ودوره الريادي في بعث وتأسيس مؤسسات المجتمع المدني، من ذلكم أنّه عضو مؤسّس لنادي القلم وللنادي الثقافي أبو القاسم الشابي ولجمعية المعجمية العربية في تونس ولاتّحاد الكتاب التونسيين.

مثل هذا النشاط وهذه الجدية التي طبعت أعمال أديبنا واستعداده إلى إعادة طبع ما نفد في السوق من إنتاجه وانكبابه على تأليف جديد عن «الصحفي الشيخ سليمان الجادوي»، وخاصة ما عُرف عن هذا الشيخ من سعة صدر وسعة اطلاع، شجّعنا على أن نقصده بجملة من الأسئلة نسلّط بها الضوء على مسيرته الحافلة بالإبداع فكرا وتصرفا، بغية توضيح ما لفّ بعض محطات حياتنا وحياته الأدبيّة من غموض، فكان الحوار التالي:

(*) الملحق الثقافي لجريدة «الحرية» : 23 فيفري و 2 مارس 2006

× كيف تنظر إلى واقع الساحة الأدبيّة في بلادنا بعد كلّ هذه السنوات من المواكبة (قرابة نصف القرن)، وهل ترى أنّ واقع اليوم قد حقّق بعض ما كنتم تطمحون إلى إنجازه ؟

. بادئ ذي بدء أودّ توضيح أمر منهجيّ، وهو أنّ العادة جرت عندنا لدى سائر العرب أن نتكلّم بلغة الـ «نحن». وقد يبدو الأمر طبيعيا أن يطلب رأيي كوجهة نظر جيل معيّن على مجمل أوضاع الساحة الثقافيّة والأدبيّة لمواكبتي لها منذ سنوات 1948 . 1949، وأنا لا زلت بالزيتونة أتردّد على حلقات الأدب آنذاك وروادها من أمثال مصطفى خريّف، ومحمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والبشير العريبي، والهادي حمو، والتابعي الاخنش، وغيرهم. لكن في حقيقة الأمر، أنا لا أمثّل صوت هذا الجيل، ولا يمكن لأحد أن يمثّله لكثرة رواده ورموزه وتنوّعهم وثرائهم واختلاف رؤاهم. أظل فقط صوتا من هذه الأصوات.

الحركة الأدبيّة كانت زمن الاستعمار تتحرّك ضمن هواجس الاستقلال الوطني، والحلم باسترجاع السيادة، وتأكد الهويّة التونسية التي كانت تتقاطع في كثير من خيوطها مع الهوية العربيّة الاسلامية. فمتابعتنا لما كان يجري في مصر، والشام، والعراق من إنتاج وإبداع فكريّ وأدبيّ ضمن ما عرف بحركة النهضة، قد طبع إلى حدّ كبير، إلى جانب ما حمله بعض من أدبائنا المزدوجي اللغة من معارف فرنسيّة خاصة، أو عالميّة مترجمة إلى الفرنسيّة، قد تركت أثرها في ما كنّا نفكّر ونكتب. يكفي مراجعة ما كان يُنشر وقتها في باب الاجتماعيات والسياسة، نثرا أو شعرا، لنقف على هذه الحقيقة. وعدد الجرائد والصحف والمجلاّت كان كبيرا قياسا بعدد السكّان وأعداد النّخب المثقّفة، ونسب غير الأميين.

بعد الاستقلال طرحت على الساحة السياسيّة قضايا جديدة، وهو أمر طبيعيّ، أثرت على انسحاب عدد من الأقلام والأعلام من الساحة. البعض الآخر بفعل التحاقه بالإدارة وتحوّل جل الأدباء إلى موظّفي دولة، من حيث معاشهم وانخراطهم في سلك التعليم أساسا، قد وجدوا أنفسهم أمام تحديات جديدة تهمّ بناء الدّولة الحديثة، وتأكيد مكاسب الاستقلال، ومسؤولية تنشئة أجيال متعلّمة قادمة.

كان هناك شعور حقيقي بضرورة توفير نصّ تونسيّ جديد لندخل في العصر، لا يقلّ عنه شعور الواجب بالحفر في كنوز مخطوطاتنا وتاريخنا الفكري والأدبي التونسي، تأصيلا للكيان، كما يقول أحد أكبر روادنا المرحوم محمود المسعدي. فتكوين مكتبة تونسية جديدة كان رهين هذين الشرطيْن.

ما الذي أنجزناه ولم ننجز ؟ أترك الإجابة لأجيال اليوم التي هي أحقّ منّي بتقدير ذلك.

الأجيال التي أتت بعدنا لم تنتظرنا، فهي تخرّجت على أيادينا في التعليم وفي دوائر النوادي الثقافيّة التي أسّسناها مثل «النادي الثقافي أبو القاسم الشابي»، و«نادي القصة»، وطرحت نفسها أحيانا تجاوزا وأحيانا أخرى ثورة، ومرّات اعترافا وأخرى نكرانا. والأمر مشروع وطبيعي فتلك هي سنّة الحياة والتطوّر.

ربّما بهذا المعنى أستطيع أن أقول إنّنا وُفّقنا إلى حدّ ما في ما كنّا نطمح إلى إنجازه، رغم ما في اعتقادي، أنّنا لا زلنا بعيدين عن تلك النهضة الأدبيّة التي حملناها في أحلامنا بوطن جديد. وقد يطول الحديث في الأسباب والمسبّبات لتداخل مستويات عدّة ومتشعّبة، منها المحلّي، ومنها العالمي، ومنها مزاحمة الكتاب من قبل وسائط جديدة ومنها ضيق السّوق، ومنها عزوف المواطن عن المطالعة. عدا أخبار فريقنا القومي أو تلك الصحف المجانية الجديدة لكبرى مساحاتنا التجاريّة من «كارفور» و«مونوبري» وغيرها، ومنها انتظار الكاتب لتشجيع الدّولة لضيق ذات اليد، ومنها أنّه لم يطلع منّا طيب صالح، أو السيّاب، أو نجيب محفوظ.. وأشياء أخرى بقدر ما لا نثيرها، بقدر ما نترك باب الأمل مفتوحا.

× أنت أحد مؤسسي النادي الثقافي أبو القاسم الشابي، وهو النادي الوحيد الذي صمد طيلة هذه السنوات، رغم اهتمام العامة والخاصة في ساحتنا الأدبية بالشعر.

فبماذا تفسّر هذا الصمود والإصرار على التواصل والبقاء ؟

وهل هو استشراف من قبل الهيئة المؤسسة لدور السّرد في حياتنا أم كانت هناك أسباب أخرى نجهلها ؟

وكيف تنظر إلى حاضره، وهل حقّق أهدافه، ثمّ كيف تنظر إلى مستقبله حتّى يواصل مسيرته الإبداعيّة ؟

. الصمود والإصرار قد يفسران بقدرة القادر على كلّ شيء. ففضاء كالذي يمتلكه النادي أجدر أن يصبح، لو سلمنا بمنطق العصر، مغازة كبرى لسدّ حاجيات ورغبات لنا لم تعد تترك مكانا ولو تافها، لأيّ غذاء روحيّ إلى درجة أصبحت فيها هذ الكلمة ومثيلاتها محلّ تندّر.

أمّا الاستشراف، فهذا من حسن أخلاقك لإضفائك علينا ملكة التنبّؤ. وما كنّا حريصين على إيجاد فضاء نمارس فيه نوعا من نكهة الوجود، ولذّة التقابل والحديث، ومحاولة ممارسة الإبداع خارج نطاق همومنا اليوميّة وواجباتنا العائليّة. ولا أخفي عليك أيضا أنّ في الأمر شيئا من البلوى قد تظهر لدى الغير في أشكال أخرى، وظهرت فينا ولعا بالأدب وإدمانا على الثقافة.

أمّا عن حاضره ومستقبله فالأمر موكول للقائمين عليه اليوم، ومرهون بما سيورثونه للاحقيهم.

وبعيدا عن المزاح، وهو بلوة أخرى، فإنّ «نادي القصّة» أعتبره مكسبا فريدا يجب صونه إذ، كما تفضّلت بذكره، ليس من الهيّن التجديف ضدّ التيّار في حركة أدبيّة يتصدّرها الشعر وأشكال أخرى من الكتابة، كالرواية والكتابة المسرحيّة وغيرها. والقصّة القصيرة كما تسمّى، تعتبر، حتّى في بقيّة العالم، صنفا هامشيا أو أقليا، ولكنّها قد تكون أقرب إلى صفات التونسي في عدم ميله إلى أنواع الأرق من الحجم الثقيل، وفي تعامله مع الحياة في شكل مشاهد متقطّعة وقصيرة، تشهد على حياته في ترابطها ببعضها. أي أنّه لا يقارب الكلّ من خلال الكلّ. هذه مجرّد خاطرة قد يجدر بنا وبنقادنا ومحلّلينا تناولها. أنظر مثلا إلى أعمال البشير خريّف، فهي تقدّم لنا، في لوحات قصيرة تبدو منفصلة، مشهدا كاملا عن طباع وحياة التونسي، بينما نجيب محفوظ كتب ثلاثية كاملة عن مصر والمصريين. ولست هنا بصدد المقارنة، بل هو مجرّد تساؤل عن هذه الظاهرة.

ولا تفوتني هنا الإشارة إلى الابداعات المتميّزة لبعض الروائيين التونسيين، أمثال: محمد العروسي المطوي، ومصطفى الفارسي، وعمر بن سالم، وعزالدين المدني، وعبد القادر بن الحاج نصر، وسمير العيادي، وعبد الواحد ابراهم، والمختار جنات، وحسونة المصباحي، ومحمود طرشونة، ورضوان الكوني، وأحمد ممو، ويحي محمد، ومحمد صالح الجابري، والناصر التومي، وحسنين بن عمو، وظافر ناجي، وابراهيم الدرغوثي، والمنوبي زيود، وعروسية النالوتي، وحفيظة قاره بيبان... وغيرهم.

والدليل أنّ بعض هذه الإبداعات حظيت بترجمتها إلى عدّة لغات أجنبيّة، كما فازت بجوائز وطنيّة وعالميّة.

أمّا عن الاستشراف فهو، كما ذكرت في الأول، من باب حرصنا على التأسيس لكيان ثقافي وأدبي في بلد يخوض معركة البناء والتشييد، كانت من صفات الراحل محمد العروسي المطوي حرصه على فتح الأبواب أمام الطاقات الشابّة والأخذ بيدها، وهو ما يشهد له به أصدقاؤه أو الذين خالفوه الرأي في أمور أخرى.

مجلّة «قصص» صمدت طويلا، ويصعب بعد اليوم أن لا تظلّ قائمة اليوم ومستقبلا. هي إحدى الظواهر الأدبيّة الأكثر ثباتا في المشهد الأدبي. والغرسة إذا تحوّلت إلى نخلة، نكون قطعنا شوط الوجود إلى شرط التواجد. المطلوب منها أن تظلّ تنتج الثمر المرجو، وفي شبابنا اليوم من هو قادر على تلقّف المشعل والمضيّ به قدما شريطة أن يقع التعريف بها أكثر، وأن يظلّ الباب مفتوحا للجميع، وأن تلعب دورها كمدرسة لتنشئة أجيال الأدباء.

× اهتممت بالكتابة الأدبيّة ثمّ تحوّلت إلى الاهتمام باللغة فساهمت في وضع القاموس الجديد الألفبائي وكتبت أيضا للطفل. لعلّك بذلك حاولت سدّ فراغ في مكتبتنا الأدبيّة ؟

فهل ترى أنّ حال اللّغة لدى الناشئة قد تحسّن ؟ وهل ترى لك ولجيلك مسؤولية في ذلك ؟

. الكتابة الأدبيّة بدأتها في مطلع شبابي، يوم كانت عديد المقاهي في تونس العاصمة نوعا من المنتديات والنوادي الأدبيّة التلقائيّة، ويوم كان للكاتب سوقه بالكتبية، وهو سوق مجاور لسوق الصاغة والذّهب، ويضاهيه حركية ونشاطا. عندما يلتقي، في مقهى، شاب لم يبلغ العشرين من العمر شخصيات في حجم زين العابدين السنوسي، ومحمد صالح المهيدي، ومصطفى خريّف، وحمودة بوسن، وحسن حسني عبد

الوهاب، والعروسي المطوي، ومحمد المرزوقي.... فهو لا يطلب «شيشة» ولا يُصاب بثقافة كرة القدم، بل يطلب ويصاب بأشياء أخرى. يصير مدمنا من نوع آخر. يوم بلغت العشرين من عمري، أنشأت مجلّة «وحي الشباب» وتجرّأت على الاقتراب من أدباء ومثقّفين كبار ليساهموا فيها. فكانت كتابات الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، وزعيم الشباب على البلهوان، والأستاذ محمود المسعدي، والمؤرّخ محمد الصالح المهيدي، والصحفي الشهير الهادي العبيدي، والشاعرين محمد بوشريبة، وجلال الدّين النقّاش... وبالتحاقي بالتعليم تحوّل الهوس الأدبي إلى شعور بالمسؤولية تجاه ناشئتنا.

كانت البداية بملاحظة أنّنا نفتقد إلى نصوص تونسيّة في كتبنا الدراسيّة التي كنّا نجلبها من الشرق، في ما يخصّ مادة العربيّة. تكوّنت لجنة ضمن «نادي القلم» الذي أسسناه سنة 1949 يرأسها محمد العروسي المطوي، وأخرى للتحقيق في التراث برئاسة محمد المرزوقي وكنت أحد أعضائها. وقد أفضت صداقتنا وعملنا المشترك إلى خوض ميدان التحقيق في التراث والمخطوطات، فكان مؤلّف «أبي الحسن الحصري القيرواني» وكنّا أصدرنا قبله كتابا وثائقيا عن «معركة الزلاج» وآخر عن «الطاهر الحداد».

وبمرّ الزمن، لاحظت عناء بعض المعلمين المتربصين في الرجوع إلى القواميس العربية للبحث عن كلمة لا يعرفون معناها، وهم مطالبون بإرجاعها إلى مصدرها الاشتقاقي ليبحثوا عنها في مادتها. فإذا كنت تبحث عن كلمة «موعودة» وجب عليك مسبقا أن تعرف، والحال أنك تبحث عن معناها، أنها مشتقة من «وأد» لتذهب إلى حرف الواو عوضا عن الميم. فكّرت في الأمر مع زميليّ في التعليم علي بن هادية، وبلحسن البليش رحمهما الله وكانا من خيرة أهله، واستشرنا كثيرا أهل الرأي والذكر من لغويين، وألسنيين، ومعجمين، وعزمنا أن نبادر بوضع قاموس جديد يرمي إلى تيسير المدخل إلى المعجم، أسوة بسائر معاجم اللغات الأجنبية، حيث تكون الكلمات مرتبة وواردة حسب الحرف الأول من نطقها، وهو ما يعرف بالترتيب الألفبائي. فكلمة «موعودة» أصبح التلميذ يجدها في حرف الميم مباشرة. كما سعينا الى تحديثه بإدخال الكلمات والألفاظ المتداولة في قاموسنا اليومي، اعتمادا على ما يعرف بالرصيد اللغوي المغربي الوظيفي. وكان هذا الإنجاز أول قاموس مغاربي يظهر إلى الوجود بهذا الشكل. وفيه مزايا أخرى يطول تبيانها.

أمّا كتاب الطفل فهو مساهمة في إثراء المكتبة التونسية التي كانت غائبة أمام الانتاج المشرقي لكامل الكيلاني وغيره.

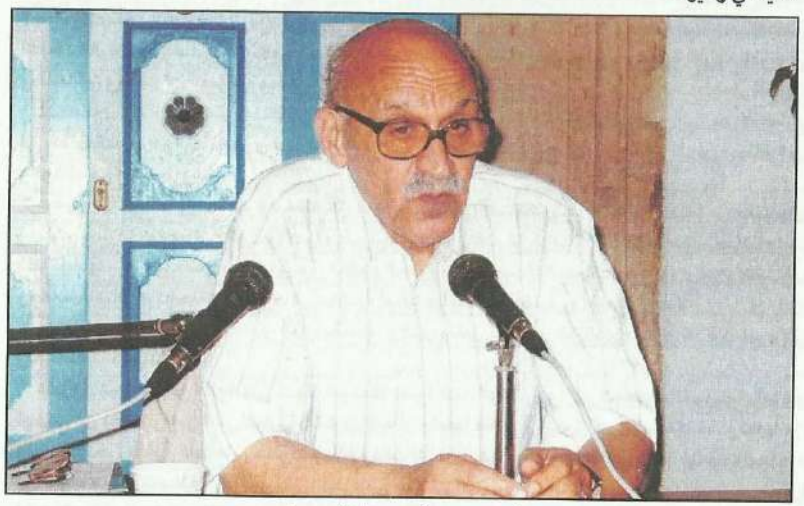

الأديب يحاضر في ندوة أدبيّة حول الحصري

وعن حال اللغة لدى الناشئة، فالأمر يطول الخوض فيه. «نورمال» إذن أن أدعوك إلى الانتقال إلى السؤال الموالي فلا أعتقد نفسي «طيارة» الى هذا الحد لاستيفاء الموضوع.

× أنت لم تكتف بكلّ هذا فقد شمل اهتمامك أيضا الطريف من الأدب، فهل ترى أننا ما زلنا، وفي هذا العصر بالذات، نحتاج الى مثل هذا الإنتاج الأدبي وإلى أيّ شريحة من المجتمع يمكن أن نتوجّه به في صورة الرغبة في مواصلة التجربة منك أو من غيرك؟

. في هذا العصر بالذات، ربما نحتاج أكثر من أيّ وقت مضى إلى هذا النوع من الأدب الضاحك، أو الساخر، أو الطريف. أحمد أمين يقول: «لماذا اختصّت الطبيعة الإنسان وحده بنعمة الضحك؟ الجواب بسيط للغاية: ليس بين أجناس الحيوان من يعاني من المشقات ما يعانيه الإنسان».

إذا كنت تعتقد، سيدي، أنّ الإنسان العربي اليوم، لا يعاني في يومياته، بين لقمة العيش، واشتباه الأمور عليه بين الدنيا والدين، قدر ما يعانيه غيره في بقية الدنيا، إن لم يكن أكثر بكثير، فأنا معك بأنه لا فائدة في هذا النوع من الأدب. يصبح الأمر وقتها، مجرد ترف مجاني لا يستقيم إدراجه في سلم أولوياته.

الطبّ الحديث أثبت أنّ الضحك يزيد في إفراز الغدد الأدرينالية، ولم يتجرأ إلى حدّ الجزم على أنها المادة التي تعطّل فينا أحيانا الميل إلى الانتحار بالنظر إلى أوضاعنا. مثل عربي قديم يقول «إنّ الرجال لفي سجن إلى أن يغمرهم الضحك».

ويروى عن الرسول(ص) أنه التقى إمرأة عجوزا فمازحها قائلا: «العجائز لا يدخلن الجنة» وإذ كاد الحزن يقتلها، سارع إلى القول بأنّ في القرآن الكريم جميع النساء يعدن في الجنة إلى شبابهن وذكرها بالآية الكريمة: «إنا أنشأناهن إنشاء، فجعلناهن أبكارا، عربا أترابا».

وللضحك أسماء عدّة، وأصناف شتّى، منها الدعابة، والهزل، والنكتة، والظرف، والملحة، والنادرة... بعضهم كالكاتب خالد القشطيني، يرى فيها ارتباطا بالطعام وملحقاته، كأنّ فيها تعويضا لجوع معنوي، وبؤس وجودي. فالفكاهة من الفاكهة، والملحة من الملح، والنادرة من الندرة، والنكتة من التمر، والهزل من الهزال، والظرف هو وعاء الماء...

والضحك هو أيضا تلك المسافة التي يضعها المرء بينه وبين نفسه ليراها أحيانا على حقيقتها خارج غلاف الحياء المتصنّع والكبرياء والرياء. وتاريخ أدبنا العربي حافل بالظرف والفكاهة خاصة في العهد العباسي «كالعقد الفريد» لإبن عبد ربه، و«البخلاء» للجاحظ، و«كتاب الأغاني» للأصفهاني، و«نهاية الأرب» للنويري، و«المحاسن والمساوي» للبيهقي، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة. ثم جاء ابن الجوزي في كتاب «أخبار الظرفاء والمتحامقين» وكتاب «الحمقى والمغفلين»، وعلي الحاكمي في كتاب «الفكاهة والدعابة»، وأبي زيد الأنصاري في «كتاب النوادر» والنيسابوري في «عقلاء ومجانين»، والأبشيمي في «المستطرف في كل فن مستظرف»، والوشاء في كتابه «الموشى».

عصور الانحطاط زرعت فكرة خاطئة عن اللغة العربية والأدب لكثرة ما أسقطته عليهما من ممنوعات وفتاوي صارمة، ولضعف الملوك والأمراء على تحمّل النقد المقنع في ثوب النكتة والفكاهة. وحياتنا مليئة نكتا بعضها بريء وبعضها مجرم في حق الظلم والجبروت، وبعضها كاشف لتصنع التقوى لدى المشايخ.. وجميعها تعبير عن وجدان الشعوب في معالجة أوضاعها بأخفّ الأضرار وأضعف الإيمان.

ولن أطيل عليك أكثر إذ الإنسان الذي يضحك، والذي يتقبل الفكاهة، هو الذي يحتاج أقل من غيره إلى زيارة طبيب نفساني.

كثيرون هم اليوم لو كانوا على خليقة الجاحظ لماتوا غبنا، أو سارعوا إلى الجراحة التجميلية، أما هو فيحكي عن نفسه أنّ إمرأة في الطريق أشارت إليه أن يتبعها فطمع أن يكون في الأمر مكسبا، وتبعها من زقاق إلى آخر، حتى وقفت على حانوت صائغ وقالت له: «مثل هذا» وانصرفت إلى حالها، فتعجّب الجاحظ من أمرها وسأل الصائغ عن الأمر فقال: «جاءتني هذه المرأة تطلب أن أنقش على خاتمها صورة إبليس، فقلت إني لا أعرف شكله، فأتتني بك». وأخيرا فإنه لولا إنسياب النكتة بعد هزيمة 67 في مصر لأنهارت أمة

بكاملها، ولك أن تقيس على ذلك.

× كيف تنظر الى واقع الساحة الأدبية بعد كلّ هذه السنوات من الكتابة والمثابرة على بعث الفضاءات الثقافية (نادي القلم، النادي الثقافي أبو القاسم الشابي، إتحاد الكتاب التونسيين)؟ وهل مازلنا ننتظر منكم كتابات أخرى وفي أيّ مجال ستكون؟

. بالنسبة للسؤال الثاني فأنا أقلعت عن التدخين بعد جهد جهيد، وبأوامر صارمة من الطبيب، أما عن الكتابة فالأمر أصعب، ولا أظنّ العقار سينفع في ما أفسده الدهر، كنت كلما أشعر بالتعب بعد ولادة عمل جديد أمنّي النفس براحة لم أنفكّ أنشدها منذ إحالتي على المعاش لحوالي عشرين سنة خلت.

والحقيقة أنّي لم أجد تشجيعا على ذلك من زوجتي وأبنائي. فهم يخشون أن أبقى فارغ الشغل، فأرابط بالبيت لممارسة «القنقتة» اليومية كمشروع إبداعي. هم يفضّلون أن أسلّط طاقتي على الورق، وليس داخل فضاء البيت. وإضافة إلى ذلك فالطبيب نصحني بالحركة الدائمة حفاظا على صحتي، ولما لم أكن يوما رياضيا عضليا، فلا مهرب لي من الرياضة الذهنية.

وأنا بصدد تأليف جديد عن الصحفي القدير الشيخ سليمان الجادوي وإعادة طبع ما نفد من: الحصري، ومعركة الزلاج، والطاهر الحداد، وتاريخ جامع الزيتونة...

أما عن واقع الساحة الأدبية فلا أخالها سوى حُبلى بالوعود والطاقات الشابة، والأقل شبابا. تبقى مسألة عسر الولادة، فهي أمر مرتبط برباطة جأش الوالدة، ومثابرتها، وصنعة القابلة، وحنكة الطبيب، وتوفّر التجهيزات اللازمة في المستشفى، وأشياء أخرى يطول شرحها. ما حدث أخيرا في اتحاد الكتاب يبشر بكلّ خير. أرجو فقط أن لا تنقشع أزمة الاتحاد لتكشف عن أزمة الكُتاب، وأن لا تحلّ أزمة الكُتاب لتفتح على أزمة الكتاب، سوقا وترويجا. جميع المؤشرات الاحصائية لتقهقر الأمية، وبلوغ نسب التعليم أقصاها وانتظارنا لنصف مليون طالب سنة 2010 تبعث على التفاؤل باستعادة الكتاب مكانته على رفوف لم يعد لها مكان في ديار التونسيين، لو وجدت صلاة «الاستكتاب» أسوة بصلاة الاستسقاء لصلّيتها صبحا وعشاء.

× هل ترى الجيل الجديد من الكُتاب قد استغل على أحسن وجه ما قدّمتوه من فضاءات ثقافية وما أنجزتموه من إبداعات، وهل أنه واصل مسيرتكم أم أنه قطع مع الماضي وأختار لنفسه مسيرة أخرى؟

. كل أثر أدبي وفنّي هو مرآة عصره، والأمر جائز في كلّ أنواع الفنون والإبداع من أدب، وسينما، ومسرح، ورقص، وموسيقى، وغيره. للجيل الجديد مآخذ كثيرة علينا ولنا عليه مآخذ غيرها. فالتواصل أكيد لا لشيء سوى لكونهم أبناءنا، والقطيعة أوكد لحاجة صحية في تجاوز الأب في انتظار أن يصبحوا بدورهم آباء يطعن في سلطتهم الأدبية أبناؤهم. تلك هي سنة الحياة، ولعل في ذلك أحد معاني الإبداع: هدم فبناء، فهدم فإعادة بناء، غير أنّ في الإبداع أيضا حدسا في تلقّف الكثير ممّا يجب صونه في بنيان الماضي، وترميمه، وإثرائه، وإلاّ تحول الأمر إلى نوع من العدمية والدوران في حلقة مفرغة، ونحن نريدها لولبية باتّجاه الفوق. جيل الأبناء الشبان انتفع كثيرا بعلوم التشريح الجديدة من ألسنية حديثة، وعلم النفس التحليلي، وهيكلية، وجميع ما أنتجه الغرب من ثورات معرفية. وقد يكسب أكثر من تجنّب النزعة المخبرية، وإخضاع الشكل إلى الفكرة والتضحية بالتلقائية، والحسّ لفائدة المضمون. ففي الشعر الحرّ إبداعات رائعة تنمّ لدى أصحابها عن تشبّعهم بالإيقاع وموسيقى الكلمات، وعن إلمامهم بالشعر الموزون حتى وإن تجاوزه كما في بعضه الأخر استخفاف بالماضي، واستسهال وتساهل مع الذات في قول شعر يكاد يكون سجعا رديئا لا يحرك ساكنا.

× لو سألناك عن العلاقة التي ربطت بينك وبين الفقيد محمد العروسي المطوي وعمّا ساهمت هذه العلاقة في تقديمه إلى الساحة الأدبية؟

. هناك أشياء وعلاقات في حياة المرء يصعب الحديث فيها وعنها، لأنها تسكن أعماقا لا يطالها العقل،

ومحمد العروسي يسكن في مناطق الحميمي من نفسي، إضافة إلى أو بسبب ما يمثله بالنّسبة لي كصديق حياة وفكر وأدب في الآن ذاته.

× هل يسمح واقع ساحتنا الأدبية الآن ويساعد على ظهور مثل هذه العلاقات التي اتّسمت بالصدق؟

. لمَ لا؟ صداقتي مع محمد العروسي المطوي، ومحمد المرزوقي وحمادي الساحلي ومحمد اليعلاوي تنتمي ربما إلى زمن آخر، لكن عندما أرى أبنائي يحملون في نفوسهم صداقات لا تقلّ صدقا أو قيمة عن صداقاتي أنا، فيحدوني الاعتقاد بأنّ القضية ليست قضية زمن بقدر ما هي قضية أشخاص وطباع وفلسفة شخصية في الحياة والرفاقة؟

× بماذا تريد أن تختم هذا اللقاء؟

. يمكن أن أختمه بالحكاية التالية: في مصر القديمة، كان الفراعنة يعتقدون أنّ الإنسان عندما يموت تركب روحه زورقا ليعبر به النيل إلى العالم الآخر. وعندما يبلغ القارب منتصف النهر في ما بين الضفتين يناوله الربان لوحا مكتوبا ويطلب منه قراءته، فإن توصّل إلى فكّ الرموز أرسى به على الضفة الأخرى ليلتحق بعالم الخلود، وإن لم يتوصل يظل يحوم به بين الضفتين، فلا يعود من حيث جاء ولا يذهب إلى حيث يروم. هكذا يظل تائها الى الأبد.

فالأدب قاربنا إلى الخلود، وهو بعدُ وجودي في حياتنا يجب أن نفهمه أفردا وشعبا ودولة. وهو الثروة التي لا تقاس بالدولار، ولا تخضع لقانون الربح والخسارة. فالإغريق، والبابليون، والصينيون القدامى، والفراعنة، والأمويون، والعباسيون، وغيرهم لئن نقرأ أثر مرورهم بهذه الأرض، من خلال ما تبقّى ولم يتبقّ من أطلالهم، فإننا نقرأه أكثر من خلال الألياذة، وقلقامش، وكونفيشيوس، والجاحظ، وألف ليلة وليلة، وغيرها...مثل هذه الأشياء هي التي تؤسّس لكياننا وتمنح لحياتنا معناها.

كما يمكن أن أختم بحكاية أخرى من العهد الجديد، ولا أعني بذلك الكتاب المقدس: إحدى حفيداتي كانت تداعب أباها بشيئ من شقاوة أطفال اليوم. سألته عما سيتركه له والده، وكانت تقصدني، وأنا لا أملك مصنعا أو تجارة. أجابها: أبي سيترك لي أبي، فكتبه ستبقى بعده، وبعدي أنا، وبعدك أنت، وأبنائك وأبناء أبنائك...أما الباقي فمآله الهباء!

مع الأديب محمد المرزوقي

الجيلاني بن الحاج يحيى، و...
« تحية الى الدكتور محمد اليعلاوي»

في حفل تكريم أقيم على شرف الدكتور محمّد اليعلاوي طُلب من أديبنا الرّاحل الجيلاني بن الحاج يحيى أن يقول كلمة في شأن صديق عمره ورفيق دربه، فقال:

« حين دعاني الصديق العزيز محمد يحيى رئيس النادي الثقافي (أبو القاسم الشابي) لأن أقول كلمة بمناسبة هذا التكريم الذي يقيمه أعضاء (نادي القصة) الأوفياء، وجدتني متهما أن أعطي للأخ الدكتور محمد اليعلاوي، ما يحمله هذا الإتهام. لأنّ بيني وبينه صداقة متينة، ولأنّ بيني وبينه علما وفهما، فكلما اجتمعت به، كان إسنادا لي، وكنت تلميذ له.

ولا خير في التلميذ، أو لا خير في الأستاذ إذا لم يكن تلميذا.

xxxx

تكريم الإنسان في حياته له معنى كبير، ودلالته أيضا كبيرة وهو - في الواقع - موقف وشعور إنساني نبيل يدل دلالة بالغة على أنّ روح الحضارة تبسط جناحها في هذا السلوك وفي هذا الموقف.

لن أخدش تواضع هذا المثقف الرصين المتواضع الذي أسهم بعطائه التربوي والعلمي والثقافي في بناء صرح النهضة الفكرية والأدبية بجدّ وحزم ومثابرة ونكران الذات، بل سأكتفي بذكر لمحة من سيرته الذاتية باختصار، ولكم بعد ذلك أن تستنتجوا بأنفسكم قيمة هذا العالم الجليل...وبذلك تتولّون نعته بالصفات والألقاب التي يستحقّها (فالورد لا يمل رحيقه) كما يُقال.

وُلد محمد اليعلاوي في (سوق الأربعاء - جندوبة الآن) في سنة 1929، وهي نفس السنة التي لفظتني فيها الحياة إلى هذا الوجود.

زاول التعليم الابتدائي بمسقط رأسه بعد أن حفظ نصيبا من القرآن في الكتاب.

انتقل بعد ذلك إلى المدرسة الصادقية بالعاصمة، وبعد أن أحرز شهادة الباكالوريا سافر إلى فرنسا، وكان يعتزم دراسة الطب، ولكنّ الجوّ الذي كان سائدا إذذاك، المفعم بأنواع الثقافة كالمسرح والسينما والموسيقى، صرفه عن دراسة الطب، وتحوّلت هوايته إلى دراسة اللغة العربية وآدابها إلى أن نال الإجازة، ثمّ التبريز من كلية الآداب في جامعة (السوربون).

أحرز شهادة دكتوراه الدولة عام 1973، وكان موضوعها (إفريقيا في الأندلس) بالفرنسية ثم ترجمها إلى العربية.

اشتغل أستاذا بمعهد الذكور بسوسة، ثم بالمدرسة الصادقية، ثم بترشيح الأساتذة المساعدين، ثم بكلية الآداب.

باشر خلال مسيرة حياته مسؤوليات عديدة إدارية وعلمية وثقافية، وسياسية. منها بالخصوص:
- عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- نائب بمجلس الأمة.
- وزير الشؤون الثقافية.
- نائب بمجلس النواب.
- عضو بمجلس الشورى لاتحاد المغرب العربي.

xxxx

أسهم الدكتور محمد اليعلاوي بعديد البحوث والدراسات والمقالات في مختلف الصحف والمجلات التونسية والعربية والأجنبية باللغتين العربية والفرنسية منها:
- النشرة التربوية لوزارة التربية و«حوليات الجامعة التونسية» ومجلة «الفكر» ومجلة «الهداية» ومجلة «الحياة الثقافية» ودائرة المعارف التونسية (بيت الحكمة)، ودائرة المعارف للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ودائرة المعارف الإسلامية ومجلة «دراسات أندلسية» ومجلة «رحاب المعرفة» وجريدة

«الصباح» ومجلة jeune afrique
- مجلة إيبلا (Ibla) الصادرة عن الآباء البيض بتونس.
- les cahiers de Tunisie وغيرها.

كما شارك في كثير من المؤتمرات والملتقيات العلمية والثقافية بتونس وبالخارج.

المؤلفات:
- 100 نص عربي و100 نص فرنسي مع الترجمة المقابلة. وهذا الكتاب يجمع 200 نصّا، مقتبسة من الأدبين العربي والفرنسي صالحة لطلاّب المدارس والجامعات.
- ابن هانئ الأندلسي المغربي شاعر الدولة الفاطمية.
- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب. وهو عبارة عن قسم من كتاب عيون الأخبار للداعي إدريس عماد الدين.
- الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي.
- ديوان الشيخ إبراهيم الرياحي. وهو تحقيق بالإشتراك مع الصديق المرحوم حمادي الساحلي.
- كتاب المقفى الكبير. أو التاريخ الكبير للمقريزي، وهذا الأثر القيّم الضخم، هو عبارة عن تحقيق لكافة التراجم التي تضمّنتها الأقسام الموجودة في هذا القاموس الضخم لأعلام مصريين وغيرهم.
- أشتات في اللغة والأدب والنقد. وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الفصول والدراسات باللغتين العربية والفرنسية، نشرت في بعض المجلاّت أو وقع تقديمها في الندوات والملتقيات، وتتداول قضايا أدبية ولغوية واجتماعية في مجالات مختلفة (وهذه الأشتات تشتمل على ثلاثة أجزاء).
- تونس وقناصل مملكة (سردانيا) بالإيطالية، وقعت ترجمته إلى اللغة الفرنسية، بالإشتراك مع الأستاذة لينا زوجة الدكتور محمد اليعلاوي التي تجيد الإيطالية.
- كتاب المجالس والمسايرات القاضي النعمان، وهو تحقيق بالاشتراك مع الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح.
- تونس المسلمة وقد ترجمته وزارة الثقافة والإعلام إلى اللغتين الفرنسية والإنقليزية.

xxxx

هذا وفي سنة 1978 انضمّ محمد اليعلاوي إلى أسرة النادي الثقافي (أبو القاسم الشابي) بصفته عضوا في الهيئة، وكان من المواضبين على حضور جلساتها التي كانت تنتظم في النادي، كما أسهم بإلقاء عدّة محاضرات ومداخلات في مناسبات مختلفة، وكان يلفت أنظار المتلقين بسعة اطّلاعه، وجميل إلقائه مع استطراداته الفكهة المرحة التي تضفي على الحاضرين جوا من الانبساط والانشراح متمثلا قول الشاعر:

أفدْ طبعك المكدود بالهمّ راحة
براح، وعلّلــه بشيئ من المزح
ولكن إذا أعطيتــه ذلك فليكــن
بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

xxxx

المتعارف عليه في ذهنية الشعوب - ولأسباب يعسر فهمها - أنّ من طالت قامته ارتفعت همّته وكان إلى الوداعة أقرب.

إنّ محمد اليعلاوي بالنسبة لمن لا يعرفه، ويرى فراغة بدنه يتفرّس فيه فرعونا ساكنا في أعماقه. فهو كمدينة الخرافة التي تطلّ عليها، فلا ترى للوهلة الأولى سوى سور شاهق وأبواب موصدة، أو هكذا يخيّل لك الأمر. وما أن تلج أبوابها، وتدخل ثناياها، وتؤمّ أنهجها، حتى تتجلّى لك كنوزها، وطيبة معشرها، وحلو مقامها، ربما هي تلك شيم الصروح التي تستحي عرض مفاتنها، فيقرأ الحياء، صرامة، والتواضع كبرياء، والوداعة تصلّبا.

قلّة ممّن عرفوا محمد اليعلاوي لم يمرّوا من هذا الانطباع الأوّلي، قبل أن يكتشفوا أنّ إشارة الدال إلى المدلول، هي أعقد من أن تكون مجرد إحالة بسيطة على أشياء، فأمر صديقنا محمد اليعلاوي كأمر اللغة تماما، تطلب منك أن تغوص في أعماقها، لتفوز بالصدَفة المكنوزة، وتدعوك لفتح الصدفة ليصيبك الحظ بالعثور على اللؤلؤة المبتغاة.

وكما ذكرنا فقد تقلد منصب وزارة الثقافة في نهاية السبعينات، وهو المنصب الذي غادره بسرعة عائدا إلى كرسيّ الجامعة، وبالتحديد كلية الآداب والعلوم الإنسانية آنذاك.

وعودته إلى الكلية والتدريس والبحث حرّكت الشاعر جعفر ماجد، فكتب قصيدة أنقل لكم بعض الأبيات منها:

كتابك كالقلادة في الصـــــدور
وأنت اليوم أعظـــم من وزيـــر
وقد جرّبت إغـــراء الكراســـي
فلم تغتـــرّ بالدنيـــا الغـــرور
ولم تحفـــل بمـــا لم يُجـــد نفعا
ولم تطلب سوى الطلب العسير
وكان العلم حقّلك وهـــو خصب
فجئت الناس بالجنـــي الوفيـــر
وكنت معلمـــا بحثـــا ودرســـا
وكـــان الكيـــل أكثـــر من كثير
وغيـــرك في الأرائك مستريـــح
لـــه في زاده بعـــض السطور

xxxx

هذا هو محمد اليعلاوي الذي كرّس حياته للتدريس، وللأدب، وللتحقيق، وللوطن، فلنحيّيه ولا ننسى أن نحيّيه كلّ يوم، لأنّ في تكريمه إحياء للقيم، وللأدب والثقافة والعلم.

(تونس 25/ 08/ 2007

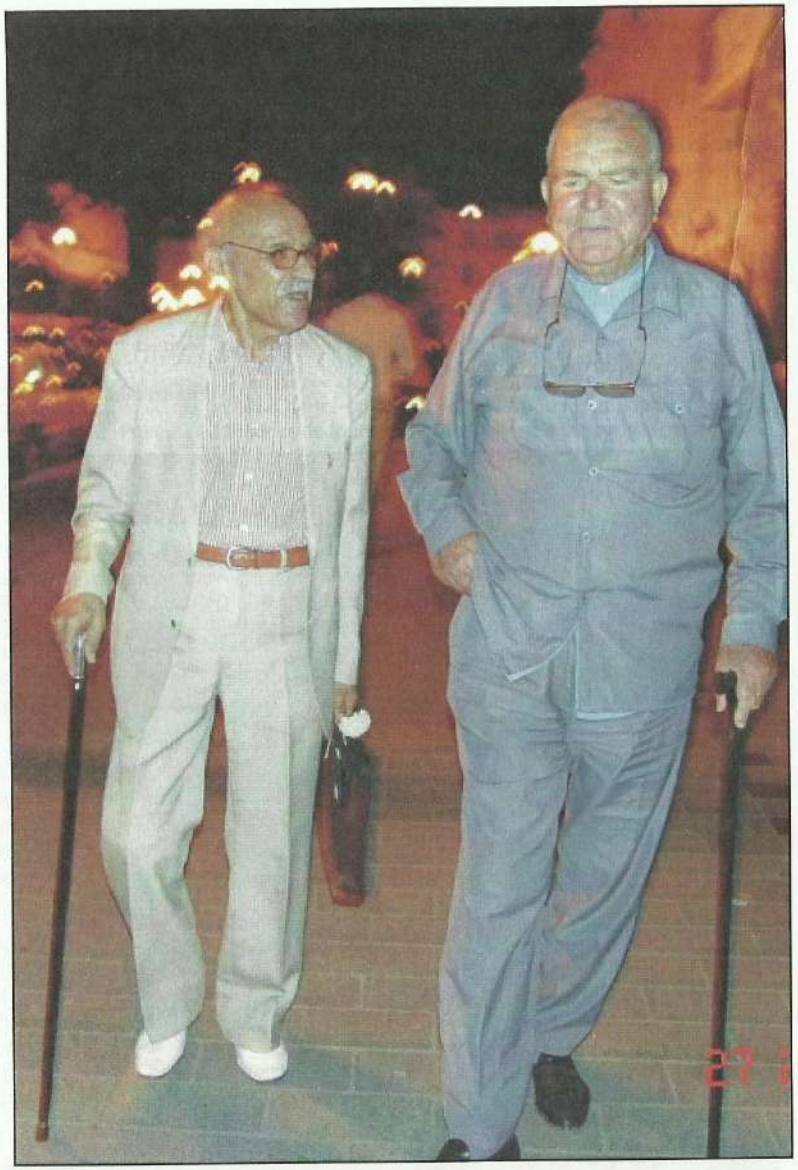

الصديقان في أحد شوارع العاصمة ذات ليلة من عمر صداقة طويل

Jilani Ben Haj Yahia, ou l'art et la manière de partager la culture

Fakhreddine Elkateb

J'ai mis beaucoup de temps pour décider de la face de la personnalité de «Si Jilani» que j'allais dépeindre et le titre que j'allais donner à mon exposé. Plusieurs parmi ses compagnons, de ses camarades de travail, ou de ses amis connaissent mieux que moi cet humaniste, homme de lettres et compagnon agréable de tous les instants de la vie. Ils vous donneront tous les détails sur sa personnalité, son cursus et sa vie.

En ce qui me concerne je vais essayer de vous dire comment «Si Jilani» transmettait son savoir. Ce qu'il a appris, ce qu'il a vu, comment il s'est conduit dans telle circonstance et ce qu'il pense de tel ou tel problème. Vous me répondrez «tout le monde ne fait que ça à longueur de journée». «Si Jilani» n'était pas «Monsieur tout le monde». Quand on l'entendait on l'écoutait avec plaisir. On ne risquait jamais de s'ennuyer avec «Si Jilani» et encore moins de s'endormir en assistant à des réunions où il prenait la parole.

«Si Jilani» ne donnait pas l'impression de transmettre des connaissances ou un savoir, il partageait tout simplement une culture. Et cela dans tous les espaces où il évoluait. Même quand il était amené à prendre la parole dans un milieu fermé ou d'un niveau social ou intellectuel très important il gardait son style. Il était toujours à l'aise et s'exprimait avec beaucoup de facilité et de simplicité. Son seul souci était de se faire adopter par son auditoire et de l'intéresser, dans le but de lui faire partager sa culture.

J'ai fréquenté «Si Jilani» sur le tard et je n'ai pas assisté à beaucoup de ses interventions. Mais j'ai eu la chance de l'écouter dans des occasions différentes. J'ai assisté à quelques-unes de ses «conférences». J'étais avec «Si Jilani» dans des après-midi, des déjeuners et des diners. Et j'ai été reçu chez lui. Ceux qui ont eu cette chance vous diront le plaisir que l'on prend quand on est à table avec lui ou quand on boit une tasse de café dans son bureau niché au fond de son jardin.

Je me rappelle l'avoir invité pour faire une conférence au Club Rotary de Tunis Sud. «Si Jilani» avait le choix du sujet. Il nous parla des «Medressas» dans Tunis. Institutions très particulières dans lesquelles vivaient des étudiants de la Zitouna. Pour moi, et peut-être pour une partie des présents le sujet n'offrait aucun intérêt. Mais tout le monde était accroché aux lèvres du conférencier. Chaque fois que l'attention baissait, «Si Jilani» faisait une petite digression. Il racontait une avanture qu'il avait vécue. Il sortait une anecdote. Puis il revenait à son sujet. Cela n'était jamais incongru. C'était normal. Cela m'a beaucoup impressionné.

Dans les cercles, où il n'était pas le conférencier, il intervenait toujours au bon moment. Il était très correct, ne coupait pas la parole aux autres. Quand «Si Jilani» parlait chacun lui prêtait attention. C'était naturel, agréable et tout paraissait si simple. On apprenait quelque chose. On ne s'ennuyait jamais en sa compagnie et on ne perdait pas son temps.

J'ai essayé de cerner et de définir ce côté hors normes de sa personnalité. Est-il enseignant, un tribun, un orateur, un conférencier, un animateur, un humoriste, ou un bon compagnon de réunions ? Il était tout cela à la fois. Son art était d'utiliser les dons d'un ou plusieurs de ces personnages et d'en affiner le dosage en fonction des sujets traités, des auditoires et de l'environnement dans lequel il évoluait. Les derniers temps chaque fois que je l'écoutais, je m'évertuais à analyser les éléments auxquels il faisait appel ainsi que le dosage qu'il en faisait. De toute façon il arrivait à ses fins: capter l'attention de son auditoire et partager avec lui sa culture, le tout dans la bonne humeur et avec une grande convivialité.

Son art et sa manière de partager la culture étaient fameux. Maintenant c'est à la nouvelle génération qui l'a accompagné de prendre la relève.

Fakhreddine Elkateb
07/02/2015